ألف ليلة وليلة

حسن جوهر　　محمد أحمد برانق

أمين أحمد العطار

١٠

الف ليلة وليلة

الجزء العاشر

على بن بكّار
و
شمس النهار

كتبه

حسن جوهر   محمد أحمد برانق

أمين أحمد العطار

الطبعة الثانية



دار المعارف

رسـوم: الفنـانة النمـساوية ستيلا يـونكرز

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

الجزء العاشر

صفحة



جانشـــــــــاه

(١)

انفضّ الرجالُ من مجلسِ الملكِ « طيغموس » وقد دَبّ الأملُ في نفوسِهم أن يَرزقَ اللهُ الملكَ العادلِ مولودًا ذكرًا ، يَخْلفُه على مُلكه المترامِي الأطراف ، بعد أن ضمّ هذا المجلسُ العلماء والمنجِّمين والسّحَرةَ من الذين استدْعاهم الملكُ من كل صَوْب ، ليَحسبُوا طالِعَه ، ويَرصُدوا نجمَه ، لعلهم يُحْيُون في نفسِه مَيِّتَ الأمل في صَبيّ تَقَرُّ به عينُه ، ويهيِّئه لتحمل تَبِعاتِ حُكمِ بلادِه .

وجاء تقريرُ هؤلاء العلماء بما أثلجَ صدر الملكِ ، وأنعشَ نفسَهُ التي اكتَنَفها اليأسُ ؛ فقد أخبروه أنه بإذنٍ من الله سيُنجِبُ ولدًا ذكرًا ،

وتكونُ أمُّه بنتَ ملكِ خُراسان ؛ ولما كان ملكُ خُراسان لا يَحملُ للملِك « طيغموس » ملك كابل — إلَّا كلَّ مودَّة — فقد أشار عليه وزراؤه ومستشارُوه أن يعملَ على إتمامِ هذا الزَّواج فوْرًا ، فأصابَ هذا الرأى هوًى فى نفسه ، وأمرهم بالاستعداد ، وتجهيزِ قافلةٍ مُحمَّلةٍ بالهدايا النَّفيسة إلى ملِك خُراسان وابنَتِه .

وانصرف الرجالُ من حضرةِ الملِك ، كلٌّ يُجهِّزُ ما أُمرَ به ، ولم يَمضِ إلا قليل حتى كانت القوافلُ قد أُعدت للسفَر ، محملةً بالنفائسِ من كلِّ طريفٍ بمملكةِ كابل وما جاورها ، مما يَدْخلُ تحتَ نفوذِ الملك ، وعلى رأسها الوزير « عين زار » كبيرُ وزراء الملك ، الذى انتخبَ لصُحبتِه جيشاً مكوّناً من أشجع فرسان المملكةِ .

ولما تحدّد يومُ السفرِ دخلَ الوزيرُ على الملك يستأْذِنُه ، فأَذِنَ له بعد أن زوَّدَه بكتابٍ إلى الملك « بهروان » صاحبِ خراسان ، يشرحُ له فيه رغْبَتَه ، ويخبرُه أنه أناب عنه وزيرَه فى إتمام تلك الرغبة .

وسافرت القافلةُ بحراسةِ الجيشِ على بركةِ الله — حتى شارفَتْ حدود بلادِ خُراسان ، وشاعَ خبرُها فى تلك البلاد ، فأمر الملك باستِقْبالها أَحسنَ استِقبالٍ ، وأَوْفدَ أمراءَ مملكَتِه لملاقاة الوزيرِ « عين زار » والترحيب به .

ولما مَثل الوزيرُ بين يدَىِ الملك أَبلغَه تحياتِ مَلِكه ، وسلّمهُ الكتاب الذى أَرسلهَ إليه .

فلما قرأه الملكُ فرِحَ فرحًا شديدًا بهذه المصاهَرَة الكريمة التى ستُوطِّدُ المودَّة والمحبةَ بين المَلِكَيْن وتَشُدُّ أزْرَهُما ، وتجعلُ من المملكَتيْن مملكةً واحدةً تصمُدُ لتَقلُّبات الزمن .

وقال للوزير :

أَبشِرْ بخيْر — بإذْنِ الله — ثم جمعَ مُستَشارِيه ، وعرضَ عليهم الأمرَ فحبَّذُوه .

فدخلَ على زوجته وابنَتِه وأخبرَهما أن مَلِكَ كابل يطلبُ يدَ ابنَتِه ، فوافقَتا ، وفوضَتاه فى الأمر .

وما كادَ الخبرُ يَشيعُ فى المدينةِ حتى بدَتْ فى حلَّةٍ قشيبةٍ من الزينَة ، وعمّت البلادَ جميعَها موجاتُ الفرح والسرُور بزواج أَميرتهم المحبوبةِ من مَلك عَظيم . وأقيمت الاحْتفالات فى طولِ المملكةِ وعَرْضها معبِّرَةً عن ذلك الشُّعور .

وتحدَّد يوم العَقْدِ فاجْتمع أمراء المملكةِ ووزراؤها وكبراؤها بقصْرِ الملك ، ثم قامَ كبارُ رجالِ الدين بمَراسِيمه مع الوزير « عين زار » الذى كان قد وكَّله مَلِكه فى إتمام الزواج عنه .

وجَهَّز الملكُ « بهروان » ابنَته بجهازٍ عظيم يَليقُ بمقام بنتِ ملِكٍ ، وزوجَةِ ملِكٍ ، وأرسلها مع بعثةِ شرفٍ كبيرة ، تحمِلُ من أنواعِ الهدايا والألطاف شيئًا كثيرًا .

وقُوبلت الأميرةُ فى مملكةِ زَوجِها بكلِّ حَفَاوة وتكْريم ،

وما مضت أشهرٌ كانت البلادُ تتشوّقُ فيها لسَماعِ نبأِ أميرِها المُنتَظَر، حتى جاءَ البشيرُ، فبَشَّر الجميع بمَوْلد «جانشاه» السعيد، فعمَّ الفرحُ وانهالَت التّهانى والدعوات الصالحات للملك ووَلىِّ عَهدِه.

وأَحضرَ الملك المنجّمين والحكماءَ وطلب مِنْهم أن يحسبوا طالعَ ابنِه من الكواكب، فصَدعُوا بالأمر. ثم أَعلموه أن ابْنه سيكونُ سعيدًا محظُوظًا إذا اجْتازَ عقباتٍ كَئُودًا تعترِضه فى أَوّل شبابِه.

فلما شَبَّ اهْتمَّ الملكُ بتَعْليمِهِ وتَثْقيفِه على يدِ جهابِذَةِ العُلماء فى عصره، كما اهتمّ اهتمامًا كبيرًا بتَعليمِهِ فُنونَ الحربِ والطَّعْنِ والنِّزال.

ولم تمض إلا سِنون قليلةٌ حتى غَدا «جانشاه» لا يُضارَعُ عِلمًا وأَدبًا ولا يُجارَى فُروسيّةً وقُوةً وشجاعة، كما طار صيتُه ببَراعتِه فى الصيْد والقنص، مما كان يُسَرّ له أَبُوه، ويَمْلأُ قلبَه بشرًا.

وفى يومٍ خرجَ الملك يصحبهُ ابنهُ للصَّيْد والقَنص مع نفرٍ كبير من عَسْكره، فلما وصَلوا إلى البَرارى والقِفار، واشتَغلوا بالصّيد أصابُوا صَيْدًا كثيرًا.

وفى عصرِ اليوم الثالث لاحَت «لجانشاه» غزالةٌ جميلةُ عجيبةُ اللَّون أَعجبتْه، وصمَّم أن يَقْبِض عليها دُون أن ينالها بأَذى ليجعَلَها زينةَ قصْرِه.

فشَرَدت الغزالةُ هاربة، فأَسرع وراءها ومعهُ نفرٌ من الفُرسانِ،

وضيّقُوا عليها الخِناق وسدُّوا عليها المسالك، وكانوا قد أشرفُوا على البَحْر بعد مُطاردةٍ عنيفةٍ .

فلم تجد الغزالةُ مفرًّا من أن تتَّجِه ناحيةَ البحرِ ، وهى خائفة ، ثم قفزَتْ إلى مركبِ صَيْد كان راسيًا بالقُرب من الشاطئ ، واختبأَتْ فيه ، فترجل « جانشاه » ومعه ستّة من الفُرسان وقفزوا إلى المركبِ ، وقَنَصوا الغزالةَ داخله ، بعد مُحاولتِها الإفلاتَ إلى البحرِ ، وسببت هذه المحاولة ، وما صحبها من حركاتٍ عنيفة — تقطيع الحبال المشدود بِها القاربُ ، فحمله الموجُ إلى عرض البحر ، فأراد الفُرسان تَحويله نحو الشاطئ والرجوعَ به . فغلبَهُم الموجُ .

ثم لاحت « لجانشاه » جزيرةٌ قريبةٌ منهم . فطلبَ من العَسْكر أن يتَّجهوا إليها ، ليتَفَقَّدوها ؛ فحوّلوا المركبَ ناحيةَ الجزيرةِ ، وساعَدَهم الموجُ ، فساقها إلى شاطئِها .

فلما وصلوا إلى الجزيرة نزلوا إليها ، وجاسُوا خلالها مُتفرجين معجَبين بأشجارها وأثمارها ، فخدَعهم جمالُ منظَرِها ، وبهرهم ما رأَوْا ، فظلُّوا يتجوّلون ، حتى آذنت الشمسُ بالمَغيبِ ، فقَفَلوا راجعين إلى المركب ، وقد ابتدأ الليل يُرخى سُدولَه ، فنزلوا إليه وسارَ بهم متجهًا نحو الشاطئ الذى أَتَوْا منه ، ولكنّ البحر قد هاجَ ، وأَرْغى وأَزْبَدَ ، وتعالَتْ أمواجُه ، وأخذتْ تَلْطم المركب لطماتٍ عنيفةً ، غيَّرَتْ من اتجاهِه ، وعَبثًا حاولَ الفُرسان أن يتَّجِهوا به الاتجاه الذى يريدون .

فقد نشرَ الظَّلامُ أجنحتَه الكثيفَة من حولهم ، فغُمَّ عليهم الطَّريق ، وسارَ بهم المركب على إرادة البَحرِ ، مستَجيباً لرغبَةِ الموْج ، مستعصياً عليه الإفلاتُ منه ، وظلُّوا على ذلك ليلتَهم ، يُغالبُهم الموجُ فيغلبهم فى عرض البحر ، لا يلمَحون أرضاً ولا برًّا ، ولا يروْن حَيواناً ولا طيرًا ، فليس إلَّا المـاء والسماء .

تَفَقَّدَ الملك « طيغموس » فى آخرِ النهار ابنَه فلم يجدْه فبَعثَ من يبحثُ عنه هُنا وهناك .

وذهبتْ جماعةٌ ناحيةَ البحرِ ، ثم عادوا ومعَهم بقيةُ العَسْكرِ الذين خلَّفَهم « جانشاه » على البَر ، حين قفزَ إلى المركب خلفَ الغزالةِ هو وأصحابه ، تاركينَ خيولَهم مَعَهم فأخبَرُوا الملك بما حدَث .

فشَقَ عليه الأمْرُ ، وكان فوقَ احتماله ، وعادَ من فوره إلى عاصمةِ مُلكه ، وأمر بتجهيزِ السُّفن والمراكبِ وتزويدِها بالعَسْكر والمَلَّاحين للبحث عن ابنِه ، وأرسل معهم كتُباً إلى أصحاب الجزائرِ وعمَّالهـا .

(٢)

أما جانشاه ورفقاؤه فإنهمْ ظَلُّوا تائهين فى البحرِ دون أن يَعثُر عليهم الروّادُ الذين يبحثون عنهم ، حتى هَبَّتْ عليهم ريحٌ عاصِفةٌ ، ساقَت المركب بهم إلى أن أوصلتْه إلى جزيرة كبيرةٍ مملوءةٍ بالأشجارِ ، ففرِحُوا

وصعدوا إلى الجزيرة ، وأكلوا من ثمراتها ، وأطعموا الغزالةَ ، ثم مَشوا إلى داخلها يتفقدُونها .

لم يَسيروا إلّا قليلاً حتى رأَوْا رجلاً غريب الخِلْقة ، جالسًا فوقَ صخرة قريبةٍ من عَيْن ماءٍ ، تَنْسابُ منها قنواتٌ وسط الجزيرةِ ، فتقدموا منه ، وسلّموا عليه ، فأشار إشارةً فهِمُوا منها أنها رَدٌّ للسلام ، وحاوَل أن يكلِّمَهم فإذا صوته مثلُ صَفيرِ الطيرِ ؛ فتعجبَ « جانشاه » ورفاقه ، ثم ازدادَ عجبُهم حينَ رأَوْه يلتفِت يمينًا وشِمالا ، فارتعب « جانشاه » ورفاقُه ، ونظروا إليه فى فَزَع واستِغراب .

وبينما « جانشاه » ومن معه فى دهشَتِهم وحَيْرَتِهم وفزَعهم ، إذ رَأَوا جمعاً من الرِّجال ينحدِرونَ من فَوْقِ الجبل ، يُسرعون نحوَهم ، والشرَرُ يتطايرُ من عيونهم ، فزادَ خوفُهم ، وأسرعُوا نحو مركَبهم ، ونزل « جانشاه » وثلاثةٌ من رفاقِه ؛ أما الثلاثة الآخرون فقد لحقَهم الرجالُ وفتكُوا بهم دون أن تُنْقِذَهم السهامُ التى صَوَّبها « جانشاه » ورفاقُه عليهم ليقْتُلوهم .

واندفع بهم المركب ثانية إلى عرض البحر ، وسارَ بهم أيامًا تكتَنِفُهم المياه ، دُونَ أن تصادِفَهم يابِسةٌ ، فنَفِدَ زادُهم ، وكادَ الجوعُ يفتكُ بهم ، فذبَحوا الغزالةَ وصاروا يقْتاتُون منها ، وطالَ بهم المُقام فى البَحر ، حتى استمكَن منهم اليأسُ ، وأَيْقَنوا أن لا نجاةَ لهم ، فهم سيصِيرون بعدَ يومٍ أو بعض يومٍ طعامًا لسمَك البحر .

وبينما هم كذلك إذ ضربتهم ريحٌ قوية قذفتْ بهم إلى جزيرةٍ أُخرى عظيمةٍ ، فجالوا فيها بأبصارِهم ، فرأوا أشجارًا وأنهارًا ، وبَساتينَ وأثمارًا ، فعرَضَ أحدُ العسْكرِ أن يَصْعَدَ إليها وحدَه لاستكشافها ، ثم يعود ويخبرهم عن حالها ؛ فاعترضَ « جانشاه » في أن يذهبَ وحيدًا ، وأرادَ مصاحبتَه ، ولكنّ رفاقَه طلبوا منه : أن يَبقى هو ويَذْهَبُوا هم .

وطلع الفُرسانُ إلى الجزيرةِ ، وجاسُوا خلالَها ، فلم يَجدوا أحدًا ، فتوغّلوا فيها ، فرأوا في وسطها قلعةً من الرُّخام الأبيضِ ، وبُيوتها من البلّور ، وفي وسط تلك القلعةِ بحيرة ، بجانبها إيوانٌ عَظيم ، نُصبت عليه كراسيّ حَولَ منصةٍ من الذّهبِ المرصَّع بمُختلف الجواهرِ . فطافوا بتلك القلعةِ يتفرّجُون عليها ، دون أن يُصادفهم أحد .

رجعوا إلى « جانشاه » ، وأخبروهُ بما رأَوْا من عجائب ، فصَعِدَ معهم ، وقصدُوا إلى القلعةِ ، وطافُوا بها ، ثم خَرجُوا إلى البستانِ ، وأكلوا من ثمراته الشهيّة وجلسُوا يسْتَريحون .

وإذ ذاك رجَعتْ بهم أذهانُهم إلى بلدِهم وأهلِهم ، بعد أن كانُوا في في شُغل عن التفكيرِ في تلك الناحيةِ ، بما هُم فيه من ضِيقٍ وكَرْبٍ .

ولم يمضِ إلّا قليلٌ حتى سَمِعوا صيحاتٍ وضجيجًا ، ولم يلبثُوا أن أَحاطَ بهم عددٌ كبيرٌ جدًّا من القِرَدَةِ . فكأنّها الجرادُ المنتَشر . فذُعِرَ « جانشاه » ورفاقُه رأَيْقَنوا أنْ لا مَفرّ من الموتِ .

وما كانَ أشدَّ عجبَهم حينَ اقتربَ منهم جماعةُ القرود ، وسَجَدوا بين

يدَىْ « جانشاه » وقبَّلُوا الأرضَ ، تحت أَقدامِه ، ثم وَقفُوا أمامَه فى أَدَبٍ وخُشوعٍ .

وبعـد بُرهةٍ أقبَلتْ جماعةٌ أُخرى ، تحمِلُ طعامًا منْ لَحمِ الغِزْلان المَشْوِىِّ ، والفَاكِهة ، ومدُّوا خِوانًا أمامَهم ، نَظَّموا عليـه صُنوفَ الطعامِ ، ودَعَوا « جانشاه » ورفاقَه ليأ كُلوا ، فتناولُوا شيئًا مِنه ، وهُم فى شِبْه ذهولٍ ، ثم رُفعت المائِدةُ ، والتَفّ القرودُ حولَهم ، فالتفَتَ جانشاه إلى كُبَرائِهم وسأَلهمْ عن حالِهم ، فأجابُوه بلسانٍ فصيح : إن هـذا المَـكانَ كان لسيدِنا سليمانَ بن دَاودَ (عليهما السلام) وكان يَأْتيه كلَّ سنةٍ مرةً . ثم أَفهموه أنه سَيكُون ملِـكاً عليهم ، وعليهم خدمتُه وطاعتُه . ولم يلبَثُوا أنِ انْصرفوا عنه ، وخَلَّفُوه ورفاقَه يتأمّلونَ وَيتعجّبُون حتى غَلبَهم النومُ .

وأصبحَ الصباحُ ، وحضرت القرودُ لخِدمتِهم ، كما فَعلُوا بالأَمسِ ، وما هى إلا هُنَيْهة حتى حضَر قوّادُ القرودِ ، ومعهم جَيْشٌ من القِرَدة ، واصطفَّتْ فى نِظَامٍ كالعسكر ، ثم طَلبُوا من « جانشاه » المَلِك أن يَحْـكُم بينَهم بالعَـدْل ، وتَوَّجُوه مِلـكاً عليهم ، ثم أَحضرُوا كلاباً كبيرة على هيئَةِ خيلٍ ، فى أعناقِها سلاسِلُ ، وطلبُوا من الملك أن يركبَ هو وزملاؤه ، وسار بهم الموْكِب ، والقردةُ من حوله تملأُ المـكانَ حَتّى وصَلوا إلى الشاطِئ ، فلم يجد « جانشاه » القارِبَ فى مكانِه الذى تركوه فيه ، فسألَ القرودَ عنهُ ، فأجابُوه بأنّهمْ أغرقُوه خَوفًا من أن يهربوا

منهم ، فشاعت الحسرةُ فى نفسِ « جانشاه » ، وقال لرفاقِه : ليس لنا حيلةٌ فى الفَكاكِ من هؤلاءِ القرودِ إلا بعنايةٍ خَفِيَّةٍ من الله .

وسارَ الجميعُ حتى أشْرفُوا على نَهرٍ ، قام خلفه جبلٌ عالٍ ، فأشارت القردةُ نحو الجبل ، وقالتْ : هذا هو جبل أعدائِنا الغِيلَان ، وسينصُرُنا الله عليْهم ، بفضل وجودِك بَيْننا .

وواصلوا السيرَ والتجوّلَ فى أنْحاء الجزيرةِ ،حتى أَبصرَ «جانشاه» لوحًا كُتب عليه :

اعلم يا من تدخلُ هـذه الأَرضَ ، أنك تَصِيرُ سلطانًا على هؤلاءِ القرودِ ، ولا يتَهيَّأُ لكَ خلاصٌ منهم إلا عَن طريقِ الدَّرْب الشرقِيِّ بناحيةِ الجبَل ، وطوله مَسيرَةُ ثلاثةِ أَشْهرٍ ، بينَ وحوشٍ وغِيلان ومَرَدةٍ ، ثم تَنْتَهى إلى البَحر المُحيط ؛ أو عَنْ طريق الدَّرْب الغَربِيِّ ، وطوله أربعة أَشْهرٍ ، وفى رَأْسه وادى النّمل ، فإذا قَدرتَ على اجتيازِه ، وصلت إلى جبَل يتوقّدُ كالنَّار ، وفى نهايتِه نهرٌ سريع الجرَيان ، على ضَفَّتِه الأُخرى مدينةٌ سكانُها من اليَهود .

فداعب « جانشاه » الأملُ عنـد قراءةِ هذا اللوح ، وعَوّل على استِكْشاف هذيْن الدَّرْبيْن ، فأَمر عسكرَه القرودَ بِالخروجِ معه للصَّيْد والقَنْص فخرجُوا ، وسارُوا مسافاتٍ بعيدةً فى بَرارِيِّ الجْزيرة ، وهناك لَمحَ العلامةَ التى تُرْشِدُ إلى وَادِى النملِ ، فغَمرَتْه موجةٌ شديدةٌ من الأَملِ والسرور ، وأَمر العسكر أن يُقيمُوا فى هذا المكانِ ، فأقاموا نحوَ



فاجأهم نمل عجيب غريب ، النملة منه فى حجم الكلب

عشرةِ أيّام دَرَس خلالَها « جانشاه » سُبُل الفِرار ودبّر خُطَطَه ، بعد أن أسَرَّ لرِفاقِه الفُرسان بنيّتِه .

وفى ليلةٍ داجيةٍ حالكةٍ ، متصل سوادها إلا من أشعة ضعيفة تبعثها النجوم — تَسلل « جانشاه — ملك القرودِ — وفرسانُه الثلاثة — نحو دَرب وادى النمل ، بعد أن تَسلحوا بِقِسيِّهم وسِهامِهم وتمنْطقوا بالخناجر والسُّيوفِ ، وساروا فى طريقهم المُظلم الذى يُنيره الأمَلُ ، وما زالُوا مُجدّين ، فى السَّيْرِ ، يبغون طَيّ مرحلةٍ واسعةٍ تُباعِدُ بينَهم وبيْن القِردَة حتى بزغ نُورُ الفَجْرِ .

انتبهَ القرودُ من نومهم ، ولم يجدوا « جانشاه » ورفاقه ، فتأكدوا أنهم تَسَلَّلُوا هاربين ، فانقسموا فريقيْن : اتجه أحدُهما ناحيةَ الدرب الشَّرْقيّ ، والثانى ناحيةَ وادى النمل ، يَبْحثُون عن الهاربين ، وما هى إلا فَتْرةٌ وجيزةٌ حتى شَاهـدُوهُم وهم يَهُمُّون بدخُول وادِى النمل ، فأسرعُوا وراءهم ، وما شَاهدهُم الفارّون حتى قَذَفُوا بأنفُسِهم فى وادى النملِ ، وأطلقُوا سِيقَانَهم للرِّيح وتبعتْهم القرودُ ، فَفَاجأَهم نَملٌ عجيب غريبٌ ، النملةُ منهُ فى حَجم الـكلبِ ، قد خرجَ من جَوفِ الأرضِ فملأ سَطْحَها ، وهجَم على القرودِ يقْضمها وينْهشُها ، والقرودُ تدافع عن نفْسِها : كل خمسةِ قرود تُحاربُ نملةً ، فهلكَ من الفريقَيْن عددٌ كبيرٌ ، والقرودُ لا تَنْثَني عن الإسراعِ خلفَ « جانشاه » لاسْترجَاعه ، فأمر « جانشاه » الفرسانَ بضَربِ القرودِ بالسُّيُوفِ ، فأَعْمَلوا فيهم السيوفَ ،

يُيامنونَهم ويُياسِرُونهم ، ولـكنّ قردًا كبيرًا هجمَ على أَحدِهم وعقرهُ فقتَلَه ، فهرب « جانشاه » ورفيقَاه إلى أَسْفَلِ الوادِى ، فلاح لَهمْ نهر يَجْرِى ، فأَسرعُوا نحوه ، فرأوا نملاً كثيرًا بجانبِهِ ، فلما رأى النملُ القادِمين أحاطَ بهم . فضربَ أَحدُ الفارسَيْن نملةً كبيرةً بسيفِه ، فقسمَهَا نصفَين ، فغَضِبَ النملُ وثارَ وهجمَ عليه وقتَله ، وكانت القرودُ قد انحدرتْ من فَوق الجبالِ مستَمِيتَة فى أَخْذ « جانشاه » إذ كانَتْ تعلمُ أنه لن يكونَ لها نصرٌ على أعدائِها المحيطين بها إلا بوجودِ هذا الملكِ بيْنَها ، فما كان من « جانشاه » إلا أن أَلقى بنفَسه فى النّهر ، وتبعه زميله ، وسبحَا حتى خارتْ قُواهُما ، وهُما يجاهِدَانِ ، ويغالِبَانِ تيارَ الماء المندَفع ، فرأى « جانشاه » شجرةً ضخمةً نابتةً على أَرضٍ نائية وسط النّهر بالقرب من الشاطِئ ، تميلُ فروعُها نحو المَاء ، فاستَماتَ حتى قبَضَ على أَحَدِ فُروعِها ، ومدَّ يَدَه لِرَفيقِه ليُنْقِذَه معه ولـكن التّيَارَ جرفَه ، وأَبْعدَه ، وقذف بِهِ نحو الصُّخورِ ، فأَغْرَقه .

(٣)

خرجَ « جانشاه » إلى البرِّ وحيدًا ، فاستَوحشَ ، وجلسَ حزينًا متأَلماً يذكرُ ما قاسَى من أَهوالٍ ، ويتصورُ ما سَيلْقاه من أهوالٍ أَمَرَّ وأَقْسى ، فيزيدُ حزنَه وأَلمه .

ولما أمسى المساءُ استكان إلى مغَارةٍ ، قضى بها ليلةً عصيبة لم تَغْتَمِضْ عيناه فيها .

ولما أصبحَ الصباحُ نهضَ ، وسار بمحاذاةِ النهْر ، وظلّ على هذه الحالِ أيامًا وليالى ، ذاقَ فيها الأمرّين .

ولكنّه انتهى به المسيرُ إلى الجبلِ المُتوقّد ، فسار بينَ صخورهِ الملتهبةِ ، يلفَحهُ سَعيرُها ، ويكادُ يأتى عليهِ ، ولكنّ الأملَ ظلَّ يدْفعُه حتى وصلَ إلى النهرِ الفاصلِ بين الجبلِ وبين مدينةِ اليهودِ ، ففَرحَ لقرْبِ دخولِه مدينةً سُكانها من البَشَر .

فاقتربَ من النّهرِ ، وجلسَ ينظرُ إليهِ مُتلهّفًا على جفافه ، كما أعلمهُ اللوحُ الذى قرأَه .

وذاتَ صباحٍ استيْقَظَ من نَوْمهِ ، وتَطَلّعَ إلى النهرِ ، فوجدَه جافًّا يابسًا ، فعَلِمَ أن اليَوْمَ يومُ سَبْت ، فأَسْرعَ إلى اجْتيازِه ، وبعد أن اجتازه وجد نفْسَه على أسوارِ مدينةٍ كبيرةٍ ، دخَلها ، فلمْ يصادفْ فى طُرُقاتها أَحدًا ، فاقتَربَ من أحدِ بيُوتها ، وفتَحهُ ، ودخَل ، فوجدَ أهلَه جالِسين ساكِتين لا يتكلّمُون ، فطلبَ منْهم طَعامًا ، فأَجَابوه بالإشارَةِ ، أَنْ كُلْ واشْربْ ولا تَتكلَّمْ ، فأَكلَ وشربَ ، وقد اطمأَنّتْ نفْسهُ بعضَ الاطمئْنانِ ، وإن كانَ فى عجبٍ من أَمرِ هؤلاء القوْمِ ، ثم غلبَهُ النومُ فنام .

ولما استيقَظَ بعدَ نَوْمةٍ طويلةٍ عميقة ، استغرقت بقية النهارِ والليلِ الذى أعقبه — كلّمه صاحب البيت ، ورحّب به ، وسأله عن حاله ، فقصّ عليه قصّته ، وذكرَ له ما لقى من عجائب ، وما لاقى من أهوالٍ ، فتعجّبَ

اليهوديّ أشدّ العجب ، وقالَ له :

يا بُنَيَّ ، إنّنا ما سمعْنا عن ذلك شيئاً قط ، ولكنْ تأتى إلينا فى كل سنةٍ قوافلُ يقولُ تجّارُها : إنهمْ من بلادِ اليمنِ ، وما أظُنُّها إلا قريبةً من بلادِك .

ففرِحَ « جانشاه » ، واستوضَحهُ عنْ ميعادِ حضورِ القوافِلِ ، وعن مِقْدارِ سَيْرِها .

فقال اليهودىُّ : إنهمْ لن يحضُروا إلا فى السّنةِ القادِمةِ ، وسفرُهمْ طويلٌ .

فحزن « جانشاه » ، ولم يتمالكْ أن ظهرَ الحزْنُ على وجههِ فواساه اليهودِىُّ ، وطَيَّب نَفْسَه ، وقال له : وما يَضِيرُكَ إذا بَقِيتَ معنا حتى تحضُرَ القافلةُ ، فنرسلك معها ؟ فقال « جانشاه » : لاضَيْرَ .

أقام « جانشاه » بمنزلِ اليهودِىِّ ، وبينما كان يتفَرّجُ ذاتَ يومٍ فى أسواقِ المدينةِ ، سمعَ رجُلاً ينادِى : من يَأْخذُ ألْفَ دينارٍ وجاريةً حسناء ، ويعملُ لِى عَمَلًا من الصُّبحِ إلى الظُّهرِ ؟ ولكنّ المنادِى كان يُنادِى ولا يردُّ عليه أَحدٌ .

فتعجَّبَ « جانشاه » ، وأَيقنَ أن هذا العملَ لا بُدّ أن يكُونَ خَطِيرًا ، لأنّه لو لَمْ يكُنْ خَطيرًا لما عرضَ صاحبُه كل هذا المال ، والجارية ، أَجْرًا له .

فَعزّ عليه أن يكون عالةً على غيره ورغِبَ أن يستجيب هو للمنادِى ،

ويقبلَ أن يعملَ هذا العمل، ويقبضَ المال الذى سوفَ يعينُه على تدبيرِ حاله، فاتَّجه إلى المنادِى وقالَ له: أنا أقضى لك هذا العملَ، فصحِبَه المنادِى إلى منزل فَخم، وأدخلَهُ إلى رجلٍ تاجرٍ، تبدُو عليْهِ دَلائلُ الثراء، وقال له: أيها التاجرُ، ظللتُ ثلاثةَ أشهرٍ أنادِى فى المدينةِ، فلم يُجِبْنى أحَدٌ غيرُ هذا الشّاب.

فرحَّب التاجِر «بجانشاه» وأشارَ إلى العبيدِ، فأحْضَروا سِماطاً حافلا بأنْواع الأَطعمَةِ الشهِيةِ: فأكلَ التاجرُ «وجانشاه»، ولما انتَهيَا نهَضَ التاجرُ، وأتى «جانشاه» بكيسٍ فيه أَلفُ دينارٍ، وأَحْضر له جارِيةً رائعة الجمالِ، وقال له: هذهِ هى أَجرتُك فى العمل الذى سأعهدُ إليكَ به.

وفى الصباح صحبه العبيدُ إلى الحمامِ، وأحضرو له حُلّةً من الحرير النفيسِ، وألبَسوه الحلةَ بعد أن استحم.

وقضى اليومَ بمنزلِ التاجرِ، وقد طابتْ نفسُه، وسَرَّى عنه بعض ما به ما لقيه من أُنْسٍ وإيناس.

وفى صباح اليومِ التالِى أتاه التاجرُ، وطلب منه مُصاحبَتَه فى إنجازِ العملِ الذى يُكلفُه إياه: فصحبَه «جانشاه» وامتطيا بغْلتَيْن، وخرجا إلى ظاهر المدينة، وجدّا فى السيْرحتى انتصفَ النهارُ، وقد وصلا إلى جبلٍ لاحدَّ لارتفاعه، فترجَّلا، وأعطى التاجرُ «جانشاه» سِكِّيناً، وطلب إليه ذبح البغلة التى كان راكباً عليها، فذبحَها وسلخها، وقطع



وفى صباح اليوم التالى أتاه التاجر وصحبه جانشاه وامتطيا بغلتين وخرجا إلى سوق المدينة

أطرافها ، ثم أمَره أن يشُق بطنَها ، ويدخُل فيه مدة ساعةٍ ، على أنَّ ما يراه داخلها ، يخبرُه به ، فصدع الفتى بالأمرِ ، وهو يتوجّسُ خيفةً ، فأخرج أمعاءَ الذبيحة ، ودخلَ مكانها ، وفى يده سكينٌ ، يتأهبُ لاستخدامهِ إذا ما اشْتم رائحة الغدْر ، نخاطَ التاجرُ الشق عليه ، وابتعدَ مختبئاً بين الصخور .

ولم يمض إلا قليلٌ حتى أتى طائرٌ ضخمٌ ، لحوّمَ فوق اللّحم ، وقد نشرَ جناحيه كمظلتيْن عظيمتين حجبتا ضوءَ الشمس عن المكان ، ثم انقضَّ فاختطفَ البغلة ، وطارَ بها إلى أعلى الجبلِ ، وأحس « جانشاه » بالطائر ، وما كادَ يشعرُ بأنه قد حطَّه ، حتى شق جلد البغلة ، وخرج منه يلوح بسكّينه ، فجفَلَ الطائرُ ، وطار مختفياً ، فقام « جانشاه » فوجد نفسه على ذلك الجبلِ المرتفع ، فنظر إلى أسفل ، فوجد التاجرَ واقفاً ، يلوح له ويقول : اقذف لنا من الحِجارةِ التى حولكَ ، حتى أدلكَ على الطريق .

فرمى إليه « جانشاه » بعدد وافرٍ منها ، وهى حجارةٌ من الياقوت والزبرجد ، والجواهر الثمينة .

رجاه بعد ذلك « جانشاه » أن يدلهُ على الطريق ، فما كان من التاجر إلا أن وضعَ الجواهرَ فى جرابٍ فوق بغلته وامتطاها ، وقفل راجعاً ، دون أن يأبه بصراخ « جانشاه » واستعطافه لحزن « جانشاه » واستغاثَ واستجارَ ، ولا مُغيث ولا مُجير ؛ فقام يَمشى ويتجوّل فوقَ الجبل ، فوجد عظاماً منثورةً ، وجثثاً يابسةً ، من شدةِ حرارة الشمس . فقال

لنفسه : لا حول ولا قوةَ إلا بالله . سيكونُ مصيرى مثل هؤلاء ، وغلبه اليأس ، ولكنّه لم يلبَث أن استبسل ، واندفع يستكشف قِمةَ الجبل لعله يجدُ مكاناً يسهل منه الانحدار ، فشرّق وغرّب دون جدوى ، وكاد يغلبهُ اليأسُ ، ولكنه سار متجهاً مع امتداد الجبلِ ، حتى خيِّل إليه أن الجبل قد ابتدأ فى الانحرافِ ، وأن طبيعة تربتِه قد تغيّرتْ ، فنمتْ عليها بعضُ الأعشابِ ، التى أكبَّ عليها ، فاقتلعها ، وازدردها ، من شدةِ الجوع .

وامتدت به الأيام وهو على تلك الحال من السير المتواصِل ، والتغذى بالعُشب ، فذبل ووَهن ، وضعفت نفسُه ، وفترت عزيمته ، وأشرفَ على الهلاك .

وفجأةً لاحَ أمامهُ الأملُ ملوحاً على صورة أشجارٍ تداعبُ خضرتها الهواء ، فى وادٍ عظيم بأسفلِ الجبلِ ، فتملكتْه سورة من الفرح ، جعلتْه يُصر على النزول إلى هذا الوادى بأية وسيلة .

وشاءت عناية الله أن يتم غرضه ، فما كاد يجولُ هنا وهناك حتى شاهد سرَباً فى الجبلِ ، ينحدرُ منه سيلٌ من المياه الغزيرة ، التى تنحدر من فوق هـذا الجبل الشامخ ، فتروى الوادىَ اليانع المزدَهر ، وبقوة مستمدة من عزمه ، انحدر نازلًا فى ذلك المنحدر العظيم ، حتى بلغ نهايته بعد جهد شاق . وعذابٍ مرير . فألقى بنفسه فوقَ عُشب يسقيه جدول عذبٌ ، فمال إليه ، يَعُبُّ منه عبًّا ، ثم أسلَم نفسه إلى نومٍ طويل ، يريح به جسده ، بعد طول إجهاد ، وطول إرهاق .

(٤)

وظلَّ على حالته هذه أيَّاماً لا يَريم ، وكأنه قد ضنَّ بنفسه أن ينتزعها من هذا المكان الساكِنِ الهادِئ المريح ، حتى لا يقعَ فى أهوالٍ أُخرى ، ما زالت مُخْتَبِئة له فى جُعبة القدر ، إلا أنه دفعتْه الرغبةُ والفضُول إلى التجول قليلا فى الوادى ، ولشدَّ ما دهش حينما أبصر قباب قصرٍ عالٍ ، يبدو له من فرُجاتِ الأشجار . فسار نحوه يتجاذبه عاملان من الخوف والأمل ؛ فوجد نفسه أمام شيخٍ جليلٍ واقف بباب القصر، يشع النورُ من وجهه ، يتكئُ على عكازٍ من ياقوت ، فبدأه بالسلام ، فرده عليه مرحِّباً به ، ودعاهُ للجلوسِ ؛ فاطمأنَّ « جانشاه » وجلس بجانبه . فسأله الشيخُ : كيفَ أتيتَ إلى هذه الأرضِ التى ما وطِئَها آدمىٌّ قط ؛ فنظر إليه نظرة كلها ألم وحزن ، فطمأَنَه الشيخ وقال : لا تحزن يا ولدى ، إنَّ مع العسْرِ يسراً ؛ ثم نهضَ فأتاهُ ببعض الطَّعام ، ودعاه إليه ؛ فأكل « جانشاه » بنَهَم ، ثم سأله الشيخُ أن يقُصّ عليه قصته ، فقصها عليه مبتدئاً من اللحظةِ التى ترك فيها والدَه ، حتى وصوله إليه ، فتملكَ الشيخ العجبُ الشديد .

ثم سأله « جانشاه » عن صاحبِ الوادى ، ولمن هذا القصرُ العظيم ؟ فأجابه : اعلم يا ولدى أن هـذا الوادى وما فيه ، وذلك القصر وما حَواه للسيد سليمان بن داود عليهما السلام ، وأنا الشيخُ نصرٌ ملكُ الطيُور

ومسخِّر الجن ، وقد وَكَّلني السيدُ سليمانُ بهذا القصر ، وعَلَّمني مَنْطِقَ الطير ، وجعلني حاكماً عليها ، وفي كل سنةٍ ، تأتي الطيُور إلى هذا القصرِ ، فتقدم ولاءها . ثم تعود .

فبدا الحزن على وجه « جانشاه » وقال للشيخ نصرٍ : يا والدي : وما الذي ستكون عليه حالتي ، وكيفَ أرجعُ إلى أهلي ؟

فرد عليه الشيخُ : إنك الآن يا ولدي قريبٌ من جبلِ قاف ، ولا سبيل إلى مبارحة هـذا المكان حتى تأتي الطيور ، فأُكلِّفَ أحدها نقلك إلى بلادك ، والآن أقم معي ، وتفرج على عجائبِ هـذا الوادي : والعبْ وامرح ، حتى يحين ذلك الحين .

مضى زمن و« جانشاه » ، مقيمٌ مع الشيخ نصر على أهنأِ حال ، ولما حان ميعادُ حضورِ الطيور ، سلمه الشيخ نصر مفاتيح مقاصيرِ القصر ، وقال له : هاك مفاتيحَ القصر ، فتجوَّل في أنحائه كما يحلو لك على ألا تقرب من هذا الباب ، وأنا ذاهبٌ لملاقاة الطير .

أخذ « جانشاه » المفاتيح ، وتفرج على جميع مقاصيرِ القصر ، ولما أتى المقصورةَ المغلقةَ ، سَوَّلت له نفسُه أن يقتحمها ليرى ما فيها،ثم يُغلقها بعد ذلك : ثم نظر فرأى ببابها المفتاح ، ففتحها ، فأبصر بها سُلَّماً يُفْضي إلى بستانٍ ، تتوسطه بحيرةٌ كبيرة ، فعبر إليها ، فوجد بضفتها قصراً صغيراً من الذهب والفضة والبلور ، ونوافذُه من الياقوتِ الأحمرِ ، ورخامه من الزبرجدِ الأخضر المطعّم بالزمرّد والجواهر ، وفي وسط القصر فسقيّة ماء ،

حولها تماثيلُ وحوش وطيور من ذهب وفضة ، تخرجُ من أفواهها مياه عذبه صاخبة ، وإذا هَبَّ النسيم ، يدخل من آذانها ، فتصفر كلٌ بلغتها ، وبجانبِ الفسقيَّة ، إيوانٌ عظيم ، به تختٌ من الياقوت المرصّع ، فوقه ستر من الحرير الموشّى ، وقد عبق المكان برائحة الوردِ والريحان والياسمين .

وفيما هو يتأملُ هذا المكان . وقد ظنّ نفسه قد انتقل إلى عالم الأحلام أبصر ثلاثةَ طيور كبيرة على هيئة الحمام ، قد حطّت بجانبِ البُحيرة ، فاختبأ خشيةَ أن تجفل فتطير .

وقفت الطيور ، ونزعت ما عليها من ريش ، فإذا بها ثلاث بنات رائعاتُ الجمال ، لم تقع عينُه على شبيهات لهن ، فاضطربَ وتحيّر ، ثم تشجّع ، وخَطاَ نحوهُن ، وسألهُن عن حالِهن ، فأجبْنَه :

نحن من ملكوت الله ، حضرنا نترَيّض فى هذا المكانِ ، ثم خرجن فى أنحاء البستان يلعبن ويمرحن ، فأتاهن « جانشاه » بأشهى ثمراتِ البستان ، فأكلنَ وشربن . ثم تناولت كل واحدةٍ ريشها فلبسته ، فحزن « جانشاه » حين أدرك أنهن يتأهّبْن للرحيل ، وقال للصغيرة : وكانت قد شغفته حبًّا (شغفه حبها) ليتك تبقين معى أو ليتنى أقدر على الطيران فأُرافقك إلى حيث تذهبين . فلم تأْبَه لقوله وقالت له :

لا تحاول نيل مالم ينله أحد غيرك — إنك تطلب مستحيلا .

ثم انتفضن طائرات ، و« جانشاه » شاخص ببصره إليهن ، حتى غِبْن عن نظرِه .



خلعت الطيور ريشها فإذا ثلاث بنات تقدم نحوهن جانشاه وسألهن عن حالهن

فصاح صيحةً عظيمة ، ثم خَرَّ مغشيًّا عليه ! !

وحضر الشيخُ نصرٌ من ملاقاة الطيور ، وتحيتهم له : كلٌّ طائفةٍ على حدة ، وكان قد أخبرها أن لديه غلاماً يبغى نَقْلَهُ إلى بلاده .

فبحث عن « جانشاه » فى القصر ، ودخل جميع المقاصير ، فلم يجده ؛ وعبثاً حاول أن يَعثر عليه ، ففَطِن إلى أنه دخل المقصورة التى نهاهُ عن دُخولها ؛ فاتجه إليها ، فإذا هو طريح على الأرضِ ، مَغشِيٌّ عليه ؛ فعمل على إفاقته ، وسأله : ألم أَنهكَ عن دخول هذا المكان ؟ ! !

ولكن ، أخبِرْنى : ماذا حَدث ؟ فأخبره «جانشاه» بما رآه ، فقال له : يا ولدى هؤلاء البنات من بنات الجِن ، ولا مأرَب لك فيهن ، وهن يأتين كلَّ سنة مع الطيور وينزلْن بالبستان ، فيلعبْن ويمرحْن ، ثم يقفِلن عائداتٍ إلى بلادهن .

فقال « جانشاه » :

وأين بلادُهن ؟ ! ! .

فأجابه الشيخُ :

والله مالى علمٌ بها ؛ ثم أردَف قائلا : قم وَانشَط ، فقد أتاكَ الفرَجُ وسأرسلُك مع الطيور إلى بلادِك .

فقال « جانشاه » للشيخ نصر :

يا والدى : لم يَعُد لى رغبة فى بلادِى ، سأبقَى معك ، ولن يجرىَ ذكر أهلِى على لسانى ، حتى تجمعنى بصغرى هؤلاء البنات ، وتزوجنى إياها .

فقال الشيخ نصر :

هؤلاء البنات من الجن ، وقد نهيتك عن مقصورتهن ، خوفاً عليك منهن ، وإذا لم تكن لك رغبة فى الرحيل إلى أهلك ، فأقِمْ عندى إلى مثل هذا الميعاد من العام القادم حتى يَحْضُرْنَ ، وسأبذُل لك معونتى بقدر ما أستطيع ، ولكنى غيرُ مسئول عن أىِّ أذى يَلْحَقُك منهن ؛ فقال له :

لا ضير عليك بعد هذا .

ومَرَّ الْحَوْلُ بطيئاً ثقيلا على نفسِ « جانشاه » حتى آن أوانُ حضورِ الطيورِ .

فقال الشيخُ نصر لجانشاه :

سأذهبُ لملاقاة الطيورِ ، فادْخُل أنتَ المقصورةَ وتَوارَ فيها ، حتى تحضُر البناتُ ، ويَخْلَعْن ريشهن ، ويَبْتعدن عنه ؛ فإذا تمّ ذلك فخذ ريش البنتِ التى تريدُها ، وخَبِّئْه ، وإذا عُدْنَ وسألْنَ عنه فلا تعطهن إياه حتى أحضر .

فقال جانشاه :

سمعاً وطاعة .

وخرج الشيخ نصر لملاقاةِ الطيورِ . ودخل جانشاه المقصورةَ ، واختبأ فيها ، ومضى الوقْتُ و « جانشاه » على أَحَرَّ من الجمرِ ، يتَمشى قلبُه فى صدْرِه ، وتتعلقُ عيناه بزُرقةِ السماء ، يبحثُ عن طيورِه ، ولم يمضِ إلا قليلٌ حتى لاحَ له بياضُ لونهن ، وتسامَعتْ أذناهُ حَفيفَ أجنحتهنَّ ،

وبعد هُنيْهةٍ حطت ثلاثةُ طيور بجانب البُحيْرةِ ، نخفق قلبُ « جانشاه » وبالغَ فى الاختفاء ، وعينُه ترقُبهنّ ، ويُعاينُ ما يَحصلُ ، فلم تسارِعْ الطيور إلى خلعِ ريشِها ، بل ظلّتْ تجولُ بعيونِها هنا وهناك ، كأنها تَبحثُ عن أحدٍ ، فلما اطمأَنتْ إلى خُلُوِّ المكان خَلَعتْ عنها ثوبَها ، فبدت البناتُ الثلاث بجمالِهن الخلّاب ، فوجفَ قلب « جانشاه » وانتظرَ حتى إذا رآهن قد انطلقْن يمرَحْن فى أنحاء البستان ، انقض كالبرقِ الخاطف فأخذ ريشَ البنت الصُّغْرى ، وأحست البناتُ فالْتفتن فرأينَه ، فسارعن إليه ، وقد ارتجفتْ قلوبُهن،وسألته «شمسة» : ولِمَ أخذتَ ثوبى أنا دونغيرِى من أخَواتِى ؟ أعطنى الريشَ .

فقال :

لن أعطيَك ريشَك إلا إذا أتَى الشيخ نصر ملكُ الطيور ، ثم تركَهُن وأسرع إلىالقصرِ ، وجلسفوق التخت ؛ فاقتربتْ منه البنات ، وجلسْنَ بجانبه ؛ وقالت له « شمسة» :

مَن أنت ؟ وما خطبك ؟

فقص عليهن جميعَ قصتِه وهو يغالبُ مرارة الأسى ، فلما فرغ قالت «شمسة» : إذا رغبتَ أن تتزوج منّى ، فأعطِنى ثيابِى الريش حتى ألْبَسها ، وأعودَ مع إخوتِى إلى أهلِي ، فأعْلِمَهم بذلك ، ثم أَرجعَ إليك ، وأحملَك إلى بلادِك .

فقال « جانشاه » يستعطِفُها : أيحِلّ لك أن تقْتُليِنى ظُلماً ؟ ! !

فقالت : وبأيِّ سَبَبٍ أقتلُك ظلماً ؟!!

فقال : لأنكِ متَى لَبِسْتِ رِيشَك ، وذهبتِ من عندِى فسأموتُ لساعَتِى .

فضحكت هى وأخواتُها وقالت : طِبْ نفساً فسأتزوج بك .

عاد الشيخ نصر ، وأقبل عليهن ، فنهضن وقبَّلن يديه ؛ فرحَّب بهن ، ودعاهن للجلوس . وخاطب الفتاة شمسةَ فى أمرِ « جانشاه » ، فوعدتْه ما يُرْضِى ، ولكنه لم يَدَعْها حتى أقسمتْ له أن تتزوَّجه ، وتنقُلَه إلى بلادِه ، ولا تخونَ عَهدَه ؛ فطابت نفس الشيخ ، وقال « لجانشاه » : الحمد لله الذى وفّق بينَك وبينها ؛ ففرح « جانشاه » لذلك فرحاً شديدًا .

وأقام «جانشاه» والبنات مع الشيخ بضعةَ أيامٍ ، ثم استأذنَتْه «شمسة» فى السّماح بالسفرِ ، فأذن لها ، وأوصاها « بجانشاه » وأوصَى « جانشاه » بها فقالت « شمسة » : مُرْه أن يعطينى ثوبى لألبَسه .

فقال : يا « جنشاه » أعطها ثوْبَها الريش .

قال : سمعاً وطاعة .

ونهض من فوره وأحضر ثوبَها فلبِستْه ، وقبَّلتْ أختيْها ، وقالت لهما : عودَا إلى أهلِكما ، وأَعْلِماهم ما جرى لى مع « جانشاه » .

ثم ودعت الشيخَ نصرًا ، وطلبتْ منه أن يَصِفَ لها الطريقَ إلى كابل ، فوصفه لها .

فقالت لجانشاه :

أعطني يدَك ، وأغمض عينَيْك ، وسُدَّ أذنيْك ، حتى لا تسمع دَوِيَّ الفَلَك ؛ وأمْسِك في ثَوبِي الريشيّ ، واحتَرِسْ ، وحاذر على نفسِك من السقوط .

فقام جانشاه ، فودع الشيخ نصرًا ، وأمسك بالسيدة «شمسة» ، التي ما لبثَتْ أن طارت في الجو مثل البرقِ الخاطف .

وبعد ذلك طارتْ أختاها وذهبتا إلى أهلهما ، وأعلمتاهم بما حَصل .

ولم تزل شمسة طائرةً ، وجانشاهُ ممسكٌ بها ، حتى لاح لها وادٍ ذو أشجار ، فقالت لجانشاه : أوَد أن نهبط في هذا الوادى ، فنستريح فيه ، ونقضى به ليلتَنا حتى الصباح .

فقال لها : افعلى ما يحلُو لكِ .

فهبطَتْ به على أرض الوادِى ، وجلسا بجانبِ نهرٍ يمتَدّ في وسطه ، وظلَّا جالسَيْن حتى أخذا نصيباً من الراحة ، ثم قام «جانشاه» وجمع بعض الثِّمار ، وأتى بها إليها ، فأكلا وشربا . ثم ناما : ولما أصبحَ الصباح نهضَا واستأنفا رحلتَهما ؛ وما زالت طائرة حتى رأتْ العلامات التي وصفها لها الشيخ نصر ، فأدركَتْ أنها قد قَاربت بلاد « جانشاه » ، فنزلتْ من الجو إلى مَرْج فسيحٍ ، فيه غِزْلانٌ رائعة ، وعيون نابعةٌ ، وأثمار يانعة ، وأنهار جارية ، فهنَّأَتْه بالسلامة وجلسا يتَنَاوَلان ما تيسَّر من طَعام .

(٥)

وبينما هما جالسان أقبل فارسان كان أحدهما من الفرسان الذين تركهم « جانشاه » بجانب الخيل ، حين أراد اقتناص الغزالة في مركب لصيد .

فلما رأى « جانشاه » تفرس فيه ، فعرفه ، فسلم عليه ، وهو يكاد يطير من شدة الفرح ؛ وقال له :

ائذن لي — يا سيدي — أن أذهب إلى والدك ، وأبشره بقدومك .

فقال جانشاه :

اذهبا إلى أبي ، وأعلماه نبأ حضوري ، وأتيانا بالخيام ، حتى نستجم ، ونستريح بعض الراحة .

عاد الفارسان بمصاحبة الريح ، فلا تكاد أرجل جواديهما تمس الأرض لفرط سرعتهما ، فلما مثلا بين يدي الملك قالا له :

أبشر يا ملك الزمان .

فسرت في جسمه رعدة فرحة ، وكأنه هتف به هاتف ! إنها بشرى ولده ؛ فاستفسرهما وهو يجالد نفسه ، فقالا :

رد الله عليك ابنك « جانشاه » ، وأعاده بعد غياب طويل ، وهو منك غير بعيد ، ويقيم في مرج الكرداني .

فما كاد يسمع هذا ، حتى هزته الفرحة هزا عنيفا ، وأمر وزيره أن

يَخْلعَ على كُلِّ واحدٍ من الفارسَيْن خِلعةً نفيسَةً ، سواءٌ أ كانَ الخبرُ صدقًا أمْ كذبًا ، فقالا :

نحن ما نكْذِبُ — يا مولانا — وقد كُنَّا معهُ الآن ، وأمرنا أن نأتِيَ له بالْخِيامِ .

فقال المـلكُ : كيفَ حالُ ولَدِى ؟ !

فقالا : ولدُك على أَحسنِ حالٍ ، ومعه بِنْتٌ كأنها من حُور الجَنّةِ ؛ فأمر المـلكُ بدَقِّ الـكاسَات ، ونَفْخِ البوقات ، لإذاعةِ البُشْرى ؛ وأَرسلَ المبشِّرين ، فبَشَّرُوا أم « جانشاه » التى كادَ الحزنُ يَقْضى عليها .

وتَوجه المـلكُ « طيغموس » إلى مَرْجِ الـكردانى ، فى جَيْشٍ كبير .

وما التَقى الوالدُ والولَدُ ، حتى أَلْقى كلٌ بنفْسهِ على الآخر ، وتعانقا عِناقًا طويـلًا :

ونُصِبت الْخِيامُ ، ورفِعت الأعلامُ ، ودقَّت الطبُول ، وزمرت الزمُور . وأقبل الملك وابنُه . فدخلا على السيدةِ شمسة ، وهى فى خَيْمتِها التى نُصِبتْ لها ، وكان نَسيجُها من الحريرِ الأحمر .

فسلّمَ عليها المـلكُ ، وجلسَ معها . وبجانبه ابنُه ، وطلبَ منهُ أن يقصّ له قصةَ غيْبَتِه .

فقصَّها لأَبيه ، وأَبوهُ لا يتمالَكُ نفسه من فرطِ العَجَب ، وأخيرًا التَفتَ إلى السَّيدةِ شمسة وشكَرَ لها حُسْنَ صنيعها ، وقال لها :

الحمدُ لله الذى وفقَكِ حتى جَمَعْتِ بينى وبينَ ابْنى ، إنهذا لَهُوَ الفضْلُ

العظيم ، فتمنَّىْ عليَّ يا بُنَيَّتِي ما تَشْتَهِين .

فقالتْ شمسة :

تمنّيْتُ عليك قَصْرًا فى وسَطِ بستانٍ ، والماء يَجْرِى من تحتِه .

فقال :

لك يا بُنَيَّتِي ما تَشائين .

وحَضرتْ أم « جانشاه » حِينذَاك ، فخرج « جانشاه » إليْها ، وأخذها بين ذِراعيْه وهى لا ترى وجْهه من سَحابات الدموع ، فلما ملكَتْ نفسَها ، دعا شمسة لمقَابلتِها فسامتْ عليها ، وعانقتْها ، وقَبَّلتْها .

وقضى جميعهم وقتاً سعيداً . ثم رحَلوا عائِدين إلى المدينةِ التى تزيّنَتْ لاستقبالهم أجملَ زينة ، وتحلَّت بأبهى الْحُلل .

وما كادَ الملك يَطأُ قصرَه حتى أمر ، فوزعت الهِباتُ على المساكين ، ونُحرت الذّبائح ، ووُزِّعتِ اللُّحوم ، ثم جَمع كل ماهرٍ فى هندسةِ البناء ، وأمرهُم ببناءِ قصرٍ . ما صُنِع أحسن منه ، فى أقصروقتٍ ، فأجابوه بالطّاعة .

ولما علم « جانشاه » نبأ الشروع فى بناءِ القَصْر ذهبَ إلى الصُّناع ، وأمرهم أن يأْتُوا بعمودين من رخامٍ وينْقُروا فى جوف كل منهما شكل صندوق . فأجابوه إلى طلبه . فأحضر ثوبَ السيدة شمسة الريشى ، وكان من شِقَّيْن ، فوضع كلَّ شق فى عمود ؛ وصَبَّ الرصاص على الفتحتين ، ثم أقيم العمودَان فى أساس القصر .

ولمـا تمّ البناء ، وفُرِشَ القصرُ بأفخم الرِّياش أمر الملك ، فأقيمت

حفلاتُ العرسِ التى استمرتْ أياماً طِوالًا ، نُسِيتْ فيها جميع الآلام والأحزان .

وما وطئَت السيدة شمسة القصرَ حتى شمَّتْ رائحةَ ثوبها الريشىّ ، وعرفتْ مكانه . فانتظرتْ حتى انتصفَ الليلُ ، ونامَ جانشاه ، وجميعُ من بالقَصر من خدمٍ ، وتوجَّهت إلى العمودَيْن ، وحفرتْ فى جانبهما ، حتى وصلتْ إلى فتحةِ الرصاص ، فأزالتها ، واستخرجتْ ثوبها ، ولبستْهُ ثم طارتْ وجلَستْ على أعلى القصرِ ، ونادَت : أريد أن تُحضِروا لى « جانشاه » حتى أودِّعه .

وكان سكانُ القصر قد شَعرُوا بها ، ورأوْها ، فأسرعوا إلى « جانشاه » وأخبروه ، فذهبَ إليها ورآها مرتديةً ثوبها الريشىَّ ، فقال لها : كيف فعلتِ ذلك ؟ !

فقالت : إنى سررتُ جدًّا حين أوصلتُك إلى أرضِك وبلادِك ، واجتمعت بأمِّكَ وأبيك . أما أنا ، فإنى ذاهبة إلى أرضى وبلادِى وأهلى .

فقال لها : ليس لى بدونِك عيشٌ يا أُختاه .

قالت :

إنْ كنتَ تحبُّنى حقيقةً فتعالَ عندِى فى قلعةِ « جوهر تكنى » .

ثم ارتفعت فى الجو طائرةً .

وسقط « جانشاه » إلى الأرضِ فاقد الإحساس ، معقود اللسانِ ، وطار الخبرُ إلى الملك ، فأسرع بالحضور ، فوجد ابنَه فى حالةٍ سيئةٍ .

فما زَال هو وأطباؤه يعملونَ على إفاقته ، حتى ارتدت إليه نفسُه . فأخبرَهم خبرَ شمسة وأخْذها الثوبَ من العمود ، وطَيرانها به ، وما قالته له .

فقال له الملك :

يا بنى لا تحزنْ ، سنجمعُ العلماء ، والتجارَ ، والسيّاح ، ونستخبرهم عن تلك القلعة ، فإذا ما عَرفناها نذهب إليها . ونطلب من أهلها أن يزوِّجوك إياها .

وخرج الملكُ فى الحال ، فأمر بجمع كلٍّ من بالمدينةِ من علماء وتجار وسائحين ، كما أوفد إلى البلادِ أن يحضر كلُّ من يعرفُ شيئاً عن قلعةِ « جوهر تكنى » ولكنه لم يجد أحدًا يعرفُ عنها شيئاً .

فجمع السيَّاح وأغدقَ عليهم الأموالَ ، وأمرهم أن يرتادُوا البلاد ، يسألون ويتجسَّسون ، ففعلوا ذلك ، ولم يعرفُوا شيئاً . وأخيراً عادوا إلى الملك آسفين يائسين .

فحزن الملك ، وأخبر ابنه أنه أعياهُ البحثُ عن تلك القلعةِ ، ويظهرُ أنها قلعةٌ خياليّة ، فذهبت نفسه شعاعاً ولزم فراشهُ لا يبرحُه .

(٦)

وكان بين الملك « طيغموس » ، والملك « كنعيد » ملك الهند ؛ عداوةٌ قديمةٌ . فإنّ الملك « طيغموس » قد أَغارَ على بلاد ملك الهند ، وسَبّبَ له خسارةً كبيرةً فى الأرواح والأموال . فما كادَ يعلم انشغال الملك « طيغموس »

بأمرِ ابنه ؛ حتى عملَ على تقويةِ جيشِه ، والزحفِ به لأخْذ ثأرِه .

ولم يَعلَم الملك « طيغموس » بزحْفِ عدُوّه إلا بعد أن أصبحَ جيشُه في حُدودِ بلادِه ، ودهمها ، وأغار على المُدنِ ، ونهبها وذبحَ أبناءها ، واستحيا نساءها ؛ فاحتدم غَيْظاً ، ودعا وزراءه وقوادَه ، واستشارهُم ، فأجْمعوا على حَشد الجيشِ ، والخروج به لملاقاةِ العدو .

فحشد الجيش وجُنِّدَ كلُّ من يستطيعُ حملَ سلاحٍ ودربوا على فنون الحربِ وآلاته ، وخرج الملكُ على رأسِ جيشِه ، حتى اقترب من مُعسْكر عدوه ؛ فعسكر في وادٍ على حدودِ كابل ثم كتبَ كتاباً ، وأرسلَهُ مع رسول إلى الملك « كنيد » ، خيّره فيه بين الرجُوع والوئَام ، أو الموت الزُؤام ؛ وتوجه الرسولُ إلى مُعسْكرِ الأعداء ، فرآها كثيرةَ العدد ، تُغطِّي مساحَةً واسعةً من سَطحِ الأرض ، وشاهدَ في وسطِها خيمةً كبيرةً من الحريرِ الأحمرِ ، فأدركَ أنها خيمةُ الملكِ ، وقد اصْطفّ حولها عسكرٌ كثير ؛ سألوه عن غايتِه فأخْبرهم ، فأخذوه إلى الملك ؛ فسلّمهُ الكتابَ ، فقرأَهُ ، ثم سلّمه رَدَّه ، وفيه أنه سيأخذُ ثأره ، ويقتصُّ منه وغدًا يبرزُ له في الميدانِ ، ويريه الحربَ والطعان .

فلما وصلَ الرسول إلى مليكه ، وأعطاه الخِطابَ ، ووصفَ له ما رأى من شدةِ بأسِ العدوِّ ، وكثرةِ عَدَدِه وعُدَدِه — غضبَ غضباً شديدًا ، وأمر الوزير « عين زار » أن يركبَ من فورِه ، ومعه ألفُ فارس : ويهجموا على معسكر الملك « كنيد » في نصفِ الليل ، فيأخذهم على غِرَّة .

فنفَّذ الوزيرُ ما أُمِرَ به ، وكان الملكُ كغيد ، قد طلب من وزيره ، أن يَخرجَ على رأسِ جيشٍ ، ويهجُم على معسكرِ الملك « طيغموس » ، ويأخذَهم على غرّة ، ويقتُلهم غِيلة .

والتقى الجيْشان فى منتَصف الطريق ، دون أن يعلمَ أحدُهما بزَحف عدُوِّه . فما كاد الرجالُ يرون الرجالَ ، حتى استمَر بينهم النزالُ ، واستمر القتال ، وما زال يقاتلُ بعضُهم بعضاً ، حتى هُزِم جيش الملك « كغيد » وولّى رجالُه هاربين .

فلمّا علمَ الملك « كغيد » بالهزيمةِ ، غَضِب ، وخرج على رأْس جيشِه ، يبغى جيش الملك « طيغموس » ، الذى كانَ قد أعدَّ جيشَه ، ونظَّمه ، وخرج يقودُه لِلقتال . وتقابل الجيشان وتقاتَلا مُرَّ القِتال ، وقد اصطفَّ جيشُ « كغيد » فى خمسةَ عشر صفًّا ، يركبون الأفيالَ ، واصطفَّ جيشُ « طيغموس » فى عشْرَةِ صفوف ؛ وما زال القِتال دائرَ الرحى ، حامى الوطِيس ، لا يُرَى إلا لمع السيوفِ ، ولا يُسمع إلا صَهيل الخيول المختلطة بصياح الرِّجالِ ، حتى انصرمَ النهارُ ، وتراجع الجيشانِ بعد الجولة الأُولى .

وأحصَى كلُّ جيشٍ خَسارتَه ، فبلغتْ خسارةُ « كغيد » خمسةَ آلافِ فارس ، وخسارةُ « طيغموس » ثلاثةَ آلاف .

وفى اليوم الثانى خرجَ الجيشان ؛ وإذا بفارسٍ يخرج من جيشِ « كغيد » يَصيحُ :

هل من مُبارز ؟! ، هل من مناجز ؟!. فخرج إليه من «طيغموس» فارسٌ يبارزه، فتبارزا، وتناجزا وقتاً طويلاً، ولم أَحدُهما أن ينالَ من قِرْنِه ثم سنَحت لفارس «طيغموس» ضربَ فيها صاحبَه ضربةً، أسْقطتْه من فوق فيلِه مقضيًّا عليه، فارسٌ من صفوفِ القتيل إلى ساحَة المبارَزَة، يصيحُ: من أنت تقتُل أَخي ؟!، ثم رمَى خَصمه بسهمٍ سَمَّر دِرعَه في فخذه، فا غضباً وضربَه بسيْفه ضربةً قسمَتْه نصفيْن.

فلما رأى ذلك الملِك «كغيد» هجمَ والتحَم الجيشانِ.

وما زالَ الجيشانِ يتحاربانِ حتى أحسّ «كغيد» قُربَ هز فأرسلَ يستنْجِدُ بأحدِ الملوكِ من أَقربائِه.

وبينما كان الملِك «طيغموس» جالساً يوماً بخَيْمتِه أَتاه أحَدُ يَصيحُ:

نرى هناك غبرةً تقترب منَّا. فأرسل الملك من يَتعرَّفُ خَبرَها عادَ إليه، أخبرهُ أن جيْشاً عظِيماً جاء يَشُدُّ من أَزْرِ الملِك «كغيد

(٧)

أما جانشاه فإنّه ما بَرِح طريحَ الفراشِ ساهماً تكتنِفُهُ الهمـ وتُساوِرُه الغمومُ لا يستمعُ لحديثٍ، ولا يستمْتع بسامرةٍ، ركبتْه الأمراض، وأصبحَ من الموت قابَ قوسَيْن أو أدْنى.

وفى يوم تنبّه بعضَ التنبّه ، وفطِن لغيابِ أبيه عنْه ، فسألَ عن سببِ غيابه ، فأخبروه بما هو فيه من حُروب .

فقال : ائْتونى بجوادٍ حتى أَذْهب إلى أَبى .

ففرِح بذلك أطباؤه وحاشيَتُه ، وأيقنوا أن تَشاغُلَه بهذهِ الأمُورِ أَصحّ عاقِبة ، وداعية على سرعة الشِّفاء ، فمرضه نَفْسىّ أكثر منه جسديًّا.

وسَرعان ما أَسْرجوا له جوادَه فامتَطاه ، وسارَ فى جيش كبير وعدَد من الخدم ليهيئُوا له أسبابَ الراحة .

وما زالُوا سائِرين حتى عسْـكَروا بمرج عظيمٍ يقضون به ليلتَهم ، وعصى النّومُ أَجفانَ جانشاه ، وسبَحتْ أفكارُه إلى شمسة . فقال لنفسه : أنا ما عُدتُ أصلح لشَىء ، وأنا مشغول الفِكْر ، مشتّتُ البـالِ ، شاردُ الذهن .

ثم حدثته نفسُه أن يهرُبَ من عسكرِه ، ويتوجّه إلى بَغْداد لعله يجدُ بعضَ القوافل المسافِرة إلى مدينة اليَهود ، فيَصْحبُها .

ولم يتوان فى تَنْفيذِ هذا الأمْرِ ، فقام متخفِّياً حتى وصَل إلى جوادِه فركبَه وأطلقَ له العِنان .

واستَيقظ العَسكرُ فى الصباح ، وتفقدوا جانشاه فلم يَجدُوه ، فتفرّقُوا هنا وهناك يبْحثون عنه دُون أن يعثُروا له على أَثر ، فتوجّهوا إلى مُعسكر أبيه وأبلغُوه الأَمر . فغضِب وثارَ ، واتّهمَهم بالإهمال . ثم رجَع إلى نفْسِه فقال :

لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله العلى العظيم ! ! قد فقَدتُ ولدى والعدوُّ قُبالَتى . فقال له الأمراء والوزراء :

اصبر يا ملِكَ الزمان ، فما بعد الصبْر إلا الفَرج ، فَأْمُرْ بالعودَة إلى المدينةِ والتحصُّنِ بها .

فرجعوا إلى المدينةِ وأَغْلَقوا أبوابَها ، وحصنوا أَسْوارَها .

ولم يزَلْ جانشاه سائِرًا يقْطعُ البرارى ويطوى القِفار ، وكلما وَصَل إلى بلدٍ من البلادِ سأل عن قَلْعةِ جوهر تكنى ، فلا يُخبرُه أحد . حتى وصَل إلى بغداد ، فسألَ عن مدينة اليهود ، فقيل له إنها فى أطرافِ بلادِ المشرق ، وأعلمُوه بقُربِ خروجِ قافِلةٍ إليها .

فذهب إلى تجَّارِ القافلة ، ووَقفَهُم على رغْبَتِه . فقالوا له :

فى هذا الشهر تَسيرُ معنا لنَذْهبَ إلى مدينةِ اليهود .

صبرَ جانشاه حتى سافرت القافِلةُ ، فسافر معها ، وكلما حطَّت فى بلد للبَيْع والشراء خرج إلى أَسْواقِها يسألُ عن القَلعةِ . فلا يَشْفى غليلَه أَحدٌ .

وما زالَ كذلك حتَّى دخَلت القافلةُ مدينَة اليهود فتوجَّه من فوْرِه إلى اليَهودىِّ الذى أَوَاهُ فى منزِله من قَبلُ ، ففرحَ بحضورِه ورحَّب به .

وفى اليومِ الثانى خرجَ يطوفُ فى المدينة فسمِع مناديًا يُنادِى : من الذى يعمَلُ عملًا مقابل ألفِ دينار وجارية .

فرح جانشاه وأسرع إلى الرَّجُل بعد أن غيّر شكله حتى يخفى أمره عليه وقال له :

أنا أعمله .

فصحبه إلى التاجر الثرى الذى فرح بلقائه وأحسنَ استقباله ، واتفقا عَلَى مثل ما اتفقا عليه فى المرةِ السابقةِ ، ونفذا خطتهما حتى حمله الطير إلى أعْلى الجبل ، فقال له التاجر : ارم لى بحجارةٍ من عِندك .

ثم ذكره بما كانَ بينهما من قبل ، وتركَهُ ، وسار فى الجبلِ ، والتاجرُ فى أشدّ العجَبِ من هذا الذى يرمى بنفْسِه إلى التهْلُكة .

جَدّ جانشاه فى السَّيْر فوقَ الجبل : غذاؤه عشب الأرْض ، وشَرابُه مطَر السماء ، وظلّ كذلك حتى أشرفَ على وادِى الشيخ نصر ، مَلك الطيور ، فانحدَر إليه . فتلقّاه الشيخُ مرحِّباً ، وقد تملّكه عامِلا الفرح ، والعَجبِ ، واستخبرَه علةَ رجوعه . فأخبرَه بما حدث من شمسة . فتألم الشيخُ وقال له : والله يا ولَدِى ما سمِعْتُ باسم قلْعةِ جوهر تكنى إلا الآن ، ولكن انتظِرْ حتى تأتى الطيور ونَسْألها .

ومكثَ جانشاه لدَى الشيخ نصر حتى أتَى مَوعدُ حضور الطيور ، فذهبَ الشيخ لمُلاقاتِها ، ودخل الفَتى مقصورةَ البُستان ، لعل شمسة تحضُر هى وأخواتُها كعادتهن .

انتظر جانشاه طويلاً فلم تحضُر البنات ، ولما رجَعَ الشيخ نصر أخْبَرهُ أنه سأل جميع الطيور عن القلعةِ ، فلم يعرفْها أحد .

فحزن جانشاه حزناً أليماً ، وضاقت الدنيا فى عيْنيه ، وجعل يسأل الله أن يخفف عنه آلامه ويحقق رجاءه .

فعطفَ عليهِ الشيخُ نصر ووَاساه، وأخذهُ عنده يهوِّن عليه، حتى هدأ بعض الهدوء. فكلَّفَ طيراً كبيراً يحملُه إلى بلادِه، ووصفَ له معالم الطريق.

ركب جانشاه فوقَ ظهرِ الطائرِ، الذى سرعان ما حلّق به فى الفضاء واندفع طائرًا إلى كابل، حيث أُمُّه وأبوه.

وما زالَ الطير طائرًا فى الاتّجاه الذى وصَفه له الشيخ نصر، وجانشاه فوق ظَهْره. ولكنه لم يلبَثْ أن اختلطَتْ أمامه المعالم، وضلّ الطريق. فحط بجانشاه إلى الأرضِ، وقال له:

لقد ضَلَلْنا الطريقَ، وهذا المكانُ هو مكان «شاه بدرى» ملك الوحوش، وسأذْهَب بِك إليه، لعلَّه يستطيع أن يُرشِدنا إلى طَرِيقِنا.

ثم أقبلا على مَلِك الوحوش، وأدْلى إليه الطائرُ برغْبتِه، فاستفْسر ملكُ الوحوش عن جانشاه، فقص عليه قصتَه، وسأله عن قَلْعةِ جوهر تكنى.

فقال ملكُ الوحوش:

والله ما سمعتُ بها، ولكنى أَستَفْسِرُ لك عنْها من الوحوشِ عندما تأتى.

فما إن وعى جانشاه كلام ملك الوحوش، حتى قال للطائر:

ارجِعْ أنتَ فى حراسَةِ الله، أما أنا فسأَظَلُّ هنا حتى أنال رَغبتى، أو أموتَ دونها.

فلما حضرت جماعاتُ الوحوش إلى مَلِكها ، وسألها عن القلمة ، نفت معرفتها لها .

فقال مَلِك الوحوش لجانشاه :

يا ولَدى لا تحمل همًّا ، فإن لى أخًا يقال له الملك شَمَّاخ ، وكان أسيرًا عند السيد سليمان ، لأنه كان عاصيًا له ، متمرِّدًا عليه ؛ وليس هناك أحد من الجن أكبر منه هُو والشيخ نصر . وهو يَحكُم الجن الذين فى هذه البلاد . فسأرسِلكَ إليه ، لعله يعرف هذه القلمة .

فلما وافقه الفَتى على هذا الرأْى ، الذى هو كلُّ أَمَلِه ورغبته — أَركَبَه ملكُ الوحوش ظهرَ وحشٍ ، وأَعطى جانشاه ، خطابَ توصيةٍ به إلى أخيه .

وقطَعَ الوحشُ وجانشاه على ظهرِه ، مرحلة شاسعةً فى أراض شائكةٍ وعْرة ، حتى وصلا إلى الملِك شَمَّاخ .

فقرأ الملِك شمَّاخ الكتابَ الذى جاءه به جانشاه ، وقال له وهو يُظْهِرُ الأسف :

يا بُنىَّ : إنى لا أَعرف هذه القلمة ، وما سمعت بها .

فأظلمت الدنيا أمامَ جانشاه ، وضاقتْ به الأرض على رُحْبِها .

فلما رَأَى الملك شَمَّاخ شدة كَرْبه . قال له عاطفًا :

قصَّ لى قصتك — يا فتى — لعلى أَستطيع مساعدتَك .

فأخبرَه جانشاه بها بصوتٍ متهدّج ، يدل على نفسٍ حزينةٍ ، وقلبٍ مَكْلوم .

فتعجَّب الملك شمَّاخ من هذا أَشَدَّ العجب ، وأطرقَ مُفكراً متأمِّلًا ، ثم رفعَ رأسه ، وقال لجانشاه :

— أنْصِت لى يا ولَدى : أَنا أَعرِفُ راهباً فى الجبلِ كبيرَ السن جدًّا ، اسمه يَغموس ، قد أَطاعَتْه جميعُ الطيور والوحُوش والجِن ، مُختارين أو مُرْغَمين ، لكثرة قراءته ، وشدة سِحْره ، وعظيم دَهائه ، وقدْرتِه على إتيانِ كلِّ عجيب ، واختراعِ كلِّ غَريب : وقد ساح فى مشارقِ الأرض ومغاربها . وعرفَ جميع الطرقِ ومسالكها .

ولقد كنت عاصياً للملك سليمانَ ، فأَسَرَنِى عنده ، فما غلبَنِى سواه ، وصرتُ تابعاً له ، وهو يسكُن فى دَيْر الماس . وسأرْسِلك الآن إليه مع طائرٍ عظيمٍ ذى أربعةِ أجنحة . فإن لم يرشدك إلى القَلْعة ، فلن يُرشدَك أحد بعْدَه . وحينئذٍ تجبُ عودتُك إلى أهلك ، ونَبذُ هذا الأمرِ من ذهْنِك ، وإقصاؤه عن فكرك .

ثم أركبه طائراً ضخماً : له أربعةُ أجنحة ، طولُ الواحدِ منها ثلاثون ذراعاً ، وله أَرجلٌ مثل أرجلِ الفيل ، وكان هذا الطائرُ لا يطيرُ فى السنة إلا مرَّتيْن ، وأمره أن يوصِّله إلى الراهبِ يغموس .

فطارَ به الطائرُ الأيام والليالى حتى وصلَ إلى جبلِ القلع ودير الماس .

فنزل جانشاه عن ظهرِه فوجد الرَّاهبَ يدخل الكنيسةَ ليتَعبدَ فيها فتقدَّم منه ، وقبَّل الأرْض بين يدَيْه ، فقال الراهب :

مرحباً بك يا ولَدِى . يا غَرِيب الدِّيار ، وبَعيدَ المَزار . أَخْبِرْنى :

ما سببُ مجيئِك إلى هذا المكان ؟ !

فقصّ عليه الفتى قصتَه من المبتدإ إلى المنتهَى ، ثم تطلع إليه يَرْقبُ قولَه ، وينتظرُ حكمَه ، فقوله فَصْل ، وحكمه لا يَقْبل النقْض ؛ وبعد ذلك سَرّاء أَو ضَرّاء ، وسعادة أَو شقاء .

وما فكّرَ الراهبُ إلا قليلا حتى قال :

— يا ولَدى : إنى ما سَمِعت بهذه القَلعة ، على طول حُكْمى على الجْن والوحوش والطيور .

ثم أردف يجدّدُ خيط الأمل :

ولكن انْتَظِر يا ولدى حتى تَأْتِى الوحوش والطيورُ وأَعوانى من الجن ، وأسألهم ، لعل أحداً منهم يَعرفُها .

وظلّ الراهبُ « يغموس » يسألُ أَعوانَه من الجن ، ويستفهم جماعات الوحوش ، ويستفسر من طوائفِ الطيرِ عن قلعةِ جوهر تكنى دون أَملٍ ، حتى أَتَى فى نهايةِ الوفودِ طائرٌ ضخمٌ أَسودُ . وكانَ ردُّه على السؤال :

— أيها الراهبُ ، لقد كنتُ أَنَا وإخوَتى فراخاً صغارًا ، وكان أبى وأمى يسكنَاَن معنا فى جبل البلّور ، خلفَ جبل قاَف ، وكانا يذهَبان ، ويأتيانِ لنا بطعامِنا . واتفق أن خرجا يوماً ، وغابا عنَّا سبعة أيامٍ حتى أشرفْتُ أنا وإخوَتى على الهلاكِ ، وفى اليوم الثامن حضر أَبوانا وهما يَبْكيان ، فسألناهُما عن سِرّ غيابِهما ، فقالا :

لقد ابْتَعدْنا فى طيَرانِنا سَعْياً وراء الرزق ، نخرج علينْاَ ماردٌ وخطفَنا ، وذهبَ بنا إلى قلعة جوهر تكنى ، فأمر ملكُها شهلان بقتْلِنا ، فاستعطفْنَاه وأخبرناه أن لنا فراخاً صغارًا ، فتركَنا وعفا عنَّا .

— ثم تابع الطائر حديثَه قائلاً :

ولو كانَ أبي وأمى على قيد الحياةِ لأخْبراكم عن القلعة .

فما وعى « جانشاه » حديث الطائرِ حتى قال للراهب :

أتوسَّلُ إلى سيّدى أن يَأْمرَ هذا الطائر بِحَمْلى إلى النَّاحيةِ التى كان يسكنُها مع أَبوَيْه .

فأمر الراهب الطائرَ بإطاعة « جانشاه » فى كل ما يأمُرُه به .

وحينما حلَّق الطائر « بجانشاه » فوقَ جبل البلّور قال له :

ها قَدْ وصلنا ، وسأَطِير بك إلى مكانِ وَكْرِنا .

فقال « جانشاه » .

أُريدُ أن تذهبَ بي إلى الناحيةِ التى كان أَبواك يذهبان إليها طَلباً للرزق .

فطار به حتى أنزلَه فوق جبل عالٍ . وقال له :

إني لا أعْرِفُ بعد هذا المكان أرضاً .

وبقى « جانشاه » فوق الجبل حتى أَخذ الكرى بمعاقِدِ أجفانِه . وما انتبه فى الصباح ، حتى بهرَه لمعان يتكَسَّر تحت أول أشعة الشمس ، التى كانت تُسفِر مُلْقيةً أرديتها السوداءَ واحدًا بعد آخر .

(٨)

عادت شمسةُ إلى قومها بعد أن تركت « جانشاه » صريعَ حبِّها ، فقصَّت عليهم قصَّتَها وقصَّته ، وأخبرتْهم ما قاساه وشاهدَه من عجائب وأهْوال . فقال لها أبواها :

يا شمسة ما يحِل لك أن تَفْعلي هذا معه

وقصَّ والدها الملكِ شهلان على أعوانه تلك القصَّةَ ثم قال لهم :

— والسيدة شمسة تؤكد أن هذا الفتى مغرَمٌ بها ، وأنه لا بُدَّ حاضر إليها ، إذْ أخبرته ، باسم القَلعة ، فمن يجد إنسيًّا منكم على مَقْربة منَّا فليأتني به .

أمَّا جانشاه فإنه أخذ يسير متَّجهاً نحو هذا البَريق الذى اتصل لمعانُه ، واشتد لألاؤُه ، حتى رآه أَحدُ أعوان الملكِ شهلانَ ، فاتَّجه إليه ، وبادَرهُ بالسلام . فردَّه جانشاه عليه وهو يرتَعِدُ من الخوف .

فقال له العَوْن :

ما اسْمُك ؟ وما خبرُك ؟

فأخبره « جانشاه » ، باسمه ، وببعض خبره .

فقال العون :

لا تَخفْ ، ولا تحزن ؛ فقد وصلتَ إلى مرادِك ، والسيدةُ شمسة هى بنت ملِكنا ، وهى تكِنُّ لك محبةً عظيمةً .

وما كادَ يسمع جانشاه هذا الكلامَ حتى أصابَه شِبْه غَشْيةٍ من الفرح الذى فُوجِئَ به ، ولكنَّ الماردَ حمله لفَوره على كاهلَيْه ، وذهبَ به إلى قلعةِ جوهر تكنى .

وأخيرًا وصَل جانشاه إلى القلعةِ التى قاسىَ فى سبيلِ الوصول إليها ما يَشيبُ من هوْله الولدان .

وصل إلى قلعةِ حبيبَتِه التى بهرَه جمالُها ، وأسرَه حبُّها ، وهو متلهف لبلوغها ، متشوق لدخولها . فما كاد يشرف عليها حتى أطبق جفنيه وحجب عنْها نور عينيه اللتين بهرهما لألاء نورها ، وكاد يذهبُ بهما سنَا ضوئها ، فلم يستطع أن يملأهما من جمـالها ، ولا أن يشبع تلهفه وشوقه برؤيتها .

وما هى إلا لحظة أو بعض لحظة حتى كان مُحاطًا بمردَة الجن وعفاريتهم وعلى رأسهم الملكُ شهلانُ ، الذى رَحّبَ به وعانقه ، وخلع عليه خلعة من الحريرِ الثمين ، مختلفةَ الألوان ، مطرزةً بالذهب ، مرصّعة بالجوهَرِ ، ثم ألبَسه تاجًا ما رأى مِثله أحدٌ من ملوك الإنس .

أمر له بعد ذلك بفرسٍ عظيمة من خيل ملوكِ الجن ، فركبَها وسار بجانبِ الملكِ شهلانَ والأعوان عن يمينهما وشمالهما ، حتى وصلوا إلى القصر .

نظر جانشاه فرأى عجبًا : رأى قصرًا حيطانُه من الجواهر واليواقيت ونفيسِ المعادن ، وأرضه من البلّور المرصّع بالزبَرْجد والزمُرّد .

أقبلتْ عليه جوارٍ حسانٌ فساعدنه على الجلوس فوق تَخْت عَظِيم بجانب تخت الملك ، حيث قُدِّمت إليهما مائدةٌ حافلةٌ بأشهى الأطْعِمة ؛ فأكلا هنيئاً ، وشربا مريئاً ؛ وما رُفِعت المائدة حتى هَلَّتْ أمُّ السيدةِ شمسةَ فعانقتْ جانشاه ، وقبَّلته ، ورحّبت به أكرمَ ترحيبٍ ؛ ثم خرجت وعادَتْ مصطَحِبة ابْنَتَها شمسة فسلمتْ وجلسَتْ ، وقد أطرقتْ برأسها خَجلا ، ثم أَقْبَلت أخَواتها فرحاتٍ بجانشاه ، مرحباتٍ بمَقْدَمِه .

وقالت أم شمسة تخاطبه — إننا جميعاً لفى أسفٍ شديدٍ ، بسببِ خطأِ شمسة معك من أجْلنا .

فقال « جانشاه » وهو ينظُر لشمسة من خلالِ دموعه — الحمدُ لله الذى بَلّغَنى مرادِى ، وأنالنى مقصودِى ، ووفَّقنِى إلى بلوغ غايتى بلقائكم ، وأنتمْ فى خير ما أَتمنّاه لكمْ من سعادة ونعيم .

وقالت شمسة : لقد كانَ ما فعلتُه من أصعَبِ الأمور وأشقِّها على نفسى ؛ ولكن ، أخبرنى يا جانشاه ؛ كيف وصلتَ إلى هنا ؟ !

فأخبرهم جانشاه بكلِّ ما لاقاه من مصاعِبَ ، وما قاساه من أهوال دُونها كل مصاعب وأهوال يتصوَّرُها إنس أو جن ، وهم يَسمعون حديثه منصتِين إليه ، مشفِقين عليه ، راثين له .

ولما انتهى من حديثه قال والدُ شمسة :

لقد انتهى عهدُ شقائك يا ولدى ، وما شمسة إلا جارية نهديها إليك .

وأقيمت الأفراحُ ، ونصبت الزيناتُ ، فى جميع أرجاء المدينة ، ثم

زُفَّتْ شمسة إلى جانشاه وسط الفرح والسرور .

وصحبت شمسة جانشاه لتريه بلادَها ، وتُطوف معه بقلْعتها ، وهو متعجِّبٌ مشْدُوه ، من هذه القلعةِ العجيبةِ المشيدةِ من الياقوت الأحمر ، ومنازلها المبنية من الذهب الأصفر ، وأبراجها الكثيرة المصنوعة من مختلف المعادن النفيسة ، والجواهر النادرة المتلألئة ، التي يكادُ يخطف سنا ضوئها الأبصار .

وبعد أن أَقام « جانشاه » مع شمسة وقومها زمناً ، ذاقَ فيه بردَ الراحة ، وتنسم نسيمَ السعادةِ التي حُرِمها طويلا ، وتمتع وإياها بما كانتْ تتوق إليه نفسُه — أبدى لها رغبته في العودةِ بها إلى أَهلِه الذين تركَهُمْ في حالة حَرب ، وضيقٍ وكَرْب ، فوافقته ، وطلبَتْ إلى أبيها أن يُهيِّئَ لها ذلك إذا وافق عليه . فرضِي عنه وحَبَّذه . واستمهلهما حتى يُهيِّئَ لهما جيشاً يصحبهما لمحاربة الملك كفيد ، والقضاء عليه .

وحان يوم الرحيل ، فركب جانشاه وشمسة فوق تخت من الذهب المرصع بالجوهر ، نصبت فوقه خيمة من الحرير الموشى . يحملُه أربعة من عسْكر الجنِّ ، وحولهم باقي الجيش ، وعلى رأسهم الملك شهلان ، وأربابُ دولته . حتى انتهوا إلى ظاهرِ المدينة .

فعانقَ الملك ابنتَه وجانشاه ، وطلب منهما أن يأتيا لزيارتهما ، على أن يقْضيا سنة هناك وسنة هُنا ، فوافقا وسلَّما . ودعا لهما الملك بسلامَةِ

الرحيل ، وحمل الأعوانُ التخت وطاروا به أيامًا إلى أن وصلوا إلى مدينةِ الملك طيغموس .

(٩)

ظل الملك طيغموس — والدجانشاه — محاصَرًا من عدوّه الملك كنفيد سنين ، قاسى وقاستْ مدينتُه فيها ضيقاً وعنتاً شديدين . فطلبَ الأمانَ من عدُوّه فلم يؤمِّنْه ، فضاقت الدنيا أمامَ عينيْه ، ولم يدر ما يَفعلُه للخَلاصِ من هذه الورْطَةِ السيئةِ ، وهذا الموقف العصيب .

وأصبحت المدينةُ في قحطٍ وجَدْب ، وأصبحَ أهلُها في حالة بؤس ، لا يدرون ما يصنعون ، إلا أن يستسلِمُوا لعدوِّهم ، ويفقدُوا وطَنهم ، ولكنهم كانوا يُؤْثرون أن يَموتوا ولا يخضعوا لعدوهم .

جاء الجنود المكلَّفون بأسوار المدينة يُهْرَعون إلى الملك طيغموس وينبئُونه أن حرْبًا ضَروسًا قائمةٌ بين الملك كنفيد وجنود آخرين لا يعرفُونهم ، يُمسِكُ الواحد منهم عشْرة من فَوق أفيالِهم ، ثم يلقى بهم إلى الأرضِ فيحطمُهم ، وتتناثر أشلاؤهم .

استعجَب لذلك الملكُ طيغموس ، وهَمّ بالخروج ليستَطلِعْ حقيقةَ هذا الأمرِ الغريبِ ، فإذا به بين ذِرَاعَىْ ولده ، الذى كان قد أَمر حاملِي التخت بالنزول به فى إيوان القَصْر .

وما كاد الأبُ يتفرس فى وجه ابنِهِ ويعرفُه ، حتى هَوَى بين ذراعيه ،

فقبَّله جانشاه فى جبينِه ، وأسعفه حتى أَفاق ، فتعانقا وهما يبكيان ، وأقبلت شمسة على الملك ، فقبلتْ يديْه وقالت له : يا سيدى ؛ اصعد إلى أَعْلى القصر ، وشاهد قتالَ أعوانِ أبى .

فصعد الملك إلى أعلى القصر ، وجلس هو وجانشاه والسيدة شمسة يتفرجُون على هذه الحرب العجيبة .

وأمر جانشاه ماردًا أن يأتى بالملك كنعيد ، فذهبَ المارد ومعه التخت فلما وصل إليه أخذه أخذًا شديدًا ، وانتزعه من بين جنوده انتزاعاً ، ووضَعه فى التخت ، فى مثل ارتدادِ الطرف ، وأتى به أمام جانشاه ، ثم تركَ التخت معلقاً فى الفضاء دون أن يُنزله إلى الأرض . وكنعيد فى داخله ينظر إلى جيشه الذى يُقَتَّلُ تقتيلا ، وإلى جانشاه وأبيه ، وهما يرقبان المعركة مسرُورَيْن ؛ فلم يستطع أن يملِكَ نفسه ، ويحبس دمعه ، فأجهش بالبكاء ، وهو معلق بين الأرض والسماء ، وظل كذلك حتى سُحق جيشه .

فأمر جانشاه بإنزال التخت ، وأخذ الملك كنعيد وسجنه ، فَنُفِّذَ ما أَمَرَ به .

وكان أهل المدينة قد رأوا ما حصلَ لأعدائهم ، وعلموا أن جانشاه وشمسة قد عادا ، فدقت الطبول ، وقرعت الأجراسُ احتفالا بالنصر المبين .

وذهب جانشاه وشمسة لملاقاة أمّه فتلقتهما والبشر يملأ جوانحها ، والسرور يملك عليها نفسها وشعورها .

وأرسل المبشرون فى جميع البلاد يبشرون بعودة جانشاه ، وإنهاء الحرب ، واعتقال كغيد .

فوفدت الوفود مهنئة ، وحملت التحفُ والهدايا إلى الملك وولده .

وكانا قد أمرا بتفريق الأموال ، وذبح الذبائح ، وإقامة الأفراح ، ومدِّ الموائد .

وبعد بضعة أشهر من سجن الملك كغيد ، ذهبت شمسة إلى الملك طيغموس وتشفعت لديه فيه . فأمر بالإفراج عنه . بعد أن أخذوا عليه العهودَ والمواثيقَ بترك البغْى والعدوان ، وإن عاد فإن على الباغى نتيجة بغيه ، ولا يكلف ذلك أكثر من أن السيدة شمسة تبعث أحد أعوانها ، فيأتى به ؛ حيث يلقى فى غيابة السجن ، يرسُف فى الأغلال .

(١٠)

مرت حقبة من الزمن وجانشاه وشمسة على أتم سعادة ، وفى أهنأ نعيم ، دائبَيْن على قضاء سنة فى كابل ، وسنة بقلعة جوهر تكنى . إلى أن أتاهم هازم اللذات ومفرق الجماعات .



عمر النعمان

(١)

عمر النعمان ملكٌ اتخذ بَغْدادَ عاصمةً لملكه، وهو صاحبُ سيطرةٍ شاملة، وقوةٍ قاهرة؛ دخَل فى سلطانه وحُكمِهِ كثير من بقاع الأرض، فبَسَط نفوذَه على الهند، والسند، والصين، والحجاز، واليمَن، والنيل، والفرات؛ ونشرَ فيها أَلويةَ العدل، فَعَنَتْ له الوجوهُ آمنةً مطمئنة، وحُمِلت إليه الجزيةُ من كل ناحية، وقام مُلْكه على أسُسٍ من العدالة والثراء والقُوة.

وله ولدٌ يُسمّى: شركان، أَفرطَ فى محبته، ووصّى له بالملك من بَعدِه، لما بدا فيه من مخايلِ القُوّةِ، وصدق العزيمة، وصواب الرأى، ومواجهةِ الأحداثِ بقلب ثابتٍ، وجرأةٍ جريئة، أَنجبَه من إحْدَى نِسَائِهِ الأربع، إذ كانت الثلاثُ الباقيات عَواقِر، لا يَلِدن.

وكانَ له إلى ذلكَ من الجَوَارِى بقدرِ عدَدِ أيام السنةِ القِبْطية ، فهن ثلاثمائة وستون جارية ، بنى لهنَّ اثنَىْ عشَر بيتاً ، فى كل بيتٍ ثلاثونَ مَقصُورة ، ولكل جاريةٍ مقصورةٌ منها ، وجعلَ لكل منهنَّ ليلة فى السنة يبيتُ فيها عندها ، فحَمَلَتْ منه جاريةٌ من هؤلاء الجوارى ، ففرِحَ ورجَا أن يكون الحملُ ذَكرًا .

أما شركانُ ابنُه فقدْ غَمَّه نبأ هذا الحمل ، وخَشِىَ أن يكونَ غلامًا ينازعُه ملكَ أبيه من بَعدِه ؛ ولهــذا أَسَرَّ فى نفسِهِ أن يقتُلَه إنْ جاءَ ذَكَرًا ، وكانت تلك الجاريةُ الحاملةُ روميّةً ، وتدعَى صَفِية ؛ أهداها إلى عمرَ النعمانِ صاحبُ قيسارية الرومىّ ، ومعها كثيرٌ من التحفِ الغالية ، وامتازتْ من بين الجوارى بجمالٍ فاتنٍ ، وعَقلٍ حَصِيف ، وعبادةِ الله ، والتّبتلِ إليه ؛ وكانَ عمرُ يجِدُ منها فى ليلتِهِ عندَها ما تقَرُّ بهِ عَيْنُهُ مِنْ حُسنِ اللقاء ، وجميل العِشرَة ، وعظيم الإخلاص ، وكريم الوفاء والولاء ؛ وكثيرًا ما كان يسمعُها فى سجودِها تدعو اللّهَ أنْ يهبَ لها غلامًا ذَكيًّا ، تحسِنُ تربيتَه وتأديبَهُ ، ويكونُ قرّةَ عَينِ أبيهِ .

ولما أجاءها المخاضُ إلى مقصورتِها وضعتْها أُنثى ؛ وكانت مشرقة الوجه ، تنبِئُ عن جمالٍ بارع ، وطار نبأ هذا إلى شركان الذى كانَ يترقبُه ، فسَرَّه أن كانَ الولدُ أُنثى ، إذْ أمِنَ على مُلكِه بعد أبيهِ أن يُنازعَهُ فيه أحَد .

ولكنَّ الجارية صفية لا تزالُ بعدَ وضعِها تلك الأُنثى تحسُّ حاجةً إلى وضْعٍ آخَر ، وأن الرّحم لا يفتأُ يتحركُ فيه شىء ، فعالَجت القابلاتُ

أَمْرَ تخليصِه مِمَّا فيه ، حتّى وضعتْهُ ذكرًا لا يقلّ عنْ أختِه جمالًا وحُسْنًا .

وجاء عمرَ النعمانَ البَشيرُ فألقَى إليه أنَّ اللهَ وهبَ له ذكرًا وأنثى ، فاستبْشَرَ وفرِح ، وأصدرَ أمرَه أَنْ تُسَمَّى البنتُ نزهة الزمان ، وأن يُسمى الابن ضوء المكانِ ، وأن يُعلَنَ هذا النبأ فى أنحاء ملكه ، وأن يُعَدَّ القصرُ لاستقبال المهنّئين من الوزراء والأمراء ، وكبارِ الأعيان والوجهاء .

كانَ شركانُ قد نيّفَ على العشرين رَبيعًا ، فكظم غيظَهُ من أن يكون له أخ يزاحمه فى حب أبيه وملكه من بعد موته ، كما كتم عَزمَه على الاحتيال لقتْله والتخلّصِ منهُ إلى حين ، ودَأَبَ على سجيّتِهِ فيما وُكِل إليه من أَعمالِ النّضالِ والقتال ، حتى يَطْرُدَ عنه كلَّ شُبهة وريبَة ، إذا ما نفذَ عزمَه وأصابَ أَخاه بمصيبةٍ فى نفْسِه .

وذات يومٍ دخلَ حاجبُ عمرَ النعمان عليه ، يستأذِن لوفدٍ من ملكِ الرومِ إليه ، فأذِن لهم ، وأكْرمَ لقاءهم ، ثم سألَهُم عما جاء بهم فقالوا :

أوفدَنا ملكُ الروم « إفريدون » صاحبُ القسطنطينية ، يستنصركَ على عدو جَبّارٍ ظلَمهُ وبَغى عليه ، وقد حملنا ما يليقُ بمقامك من الهدايا رجاءَ قبولها ، ويَوَدُّ لو أنجزْتَ ما رجاه منكَ مِنْ إمدادِه بمعونَتِك ونَصْرِكَ .

فقال عمر : وَمَنْ ذلكَ العدُو ؟ وكيفَ بَغى وظلم ؟

فقالوا : جارَ علينا حردوب صاحبُ قيسارية ، وذلك أنَّ أحدَ ملوكِ العرب عثر فى فتوحاته على كنزٍ قديم العهد ، وفير المال ، به خرزاتٌ

ثلاث من خالص الجوهر الأبيض ، كل واحدة فى حجْم بيضةِ النعامة عليهنَّ نقوشٌ يونانية ، ولهنَّ منافِعُ كثيرة ؛ منها أن الخرزة الواحدة إذا حملها مولودٌ كانت له وقايةً من كل مرض .

جهّزَ ملكُ العرب هذا إلى إفريدونَ هدايا ، ومنها هذه الخرزات الثلاث ، وجعل الهدايا فى مركب ، وجعل حراسها فى مركب ، ثم أقلع المركبان حتى كانا على مقربةٍ من بلادنا ، فطلع عليهما قُطاع الطريق من عساكر صاحب قيسارية ، وقتلوا الحراسَ ، وأخذوا الهدايا ، ولما بلغ إفريدون سلْب الهدايا ، وقتْلُ الحراس ؛ أرسل إليهم عساكرَه فهُزموا ، فأمدهم بجنودٍ أكثر عددًا فما انتصروا ، فأقسم إفريدون أن يخرجَ إليهم فى جميع جندِه ، وعزمَ ألا يرجِعَ حتى يتْرُكَ قيسارية وما يتبعها من البلاد خرابًا ، وها هو ذا يستنجدُ بكَ ويرجُو أن تقبل هدِيّته . وكانت الهدية خمسين مملوكاً يلبسُونَ أقبيةً من الديباج ، وعليهم مناطِقُ من ذهبٍ وفضة ، وفى أُذُنِ كل مملوك قرطٌ ذهبى ، به لؤلؤة مقدار ثمنها ألف مثقالٍ ذهباً : وجوار حسان لبِسْن وتحلّين بالحرير والذهب واللآلئ .

فقال عمر : أما الهدايا فقد قبلناها ، وأما القتالُ فدعونى قليلًا حتى أستشيرَ رجال حكومتى .

وقد أشار عليه وزيره دندان أنْ يستجيبَ لرجاء إفريدون واستنجاده ، وقال : لا ينبغى أن تقْبل هديته ، ونكفّ عن معونته ، وإذا ما نصرناه شاعَ بينَ الملوك ما لنا من قوةٍ ، فزادت فى نفوسهم مهابتنا ، وخَشُوا بأسنا .

فأصدر الملك أمرَه أن يُمدَّ إفريدون بجيش تحت قيادةِ وزيره دندان وابنه شركان ، على أن يكون ابنه هذا خاضعاً لمشورة وَزيره .

وأعد الجيش فى أقرب مدة ، وسار الجيش نحو بلاد الروم .

ولما أشرفوا على البلادِ الخاضعة لملك الروم نزلوا بواد واسع الجَنبات ، كثرت أشجاره وغطَّى أرضَهُ نباته ؛ وضربوا خيامهم مُتفرِّقين هنا وهناك . وكان الوزيرُ ورُسلُ إفريدون فى وسطِهم ، أما شركان فقد امتطى جواده وسارَ يرتاد السبُلَ ، ويعرف شيئاً عن جيوش الأعداء وقتالهم ، وجعل يسيرُ باحثاً متفقّداً حتى مضَى من الليل ثلثُهُ ، وكان من عادتِهِ أنْ ينامَ على ظهر جواده ، فأخذته سِنةٌ من النوم ، حتى استيقظَ على وَقْفةِ جواده ، وهو يضربُ الأرضَ بحافرِه ، والذى ينام على دورة الرَّحَى يستيقِظُ عند سكونِها .

استيْقظَ شركان فوجد نفسَهُ فى غابةٍ بين أشجارها الكثيرة ، التى يداعب أغْصانَها عايلُ النّسيم تحت عَيْنِ القمر فى هَجْمة الليل ، فَعرَاهُ ذهولٌ ودَهْشة ، وخشِيَ أن تأخذَه من كل ناحيــةٍ وحوشُ الغابة الضارية ، فذكر اللهَ تعالى ، وأسلمَ إليه أمْرَ نجاته ، وعودته إلى جيشه ، وقال : لا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ العلىِّ العظيم ! !

ثم غَرِقَ فى غَمْرةٍ من السكون ، ولـكنَّ حواسّه ومشاعرَه مُرهَفَة ، حتى ليكاد يسمعُ دبيبَ النّمل ، فنقل إليه الريح صوتَ حديث ، ورنّاتِ ضَحِك ؛ فترجّلَ ومَشَى قاصداً أصحابَ هذا الضحك ، فوَصَل إلى دَيْر ،

فأرسل من فُرُجات بابه نظرةً خفيَّة يُطِلُّ بها على مَنْ فيه ، فرأى عشْرَ فتياتٍ أبكار حِسان ، جلسْنَ أمامَ امْرأةٍ عجُوزٍ يتجاذَبْنَ شَهِيّ الحديثَ ، ومُتعةَ السَّمَر ، في بهو زانَه ضَوءِ القَمر ؛ وكان من بينهن فتاةٌ كأنها واسطةُ العقد ، كان لها بعْدَ رؤيتِهِ لهنَّ مكانان : مكان في الدَّيْر بين لِداتِها وأترابها ، ومكان في قلبِ شركان لا ينافِسُها فيه أحد .

جعلت تلك الفتاة الجميلة تصارعُ أترابَها واحدة واحدة حتى غلبتْهن كلَّهن ، فقالت العجوز ، وكانت جدة هذه الفتاة لأبيها :

لقد صرَعتُ من قبلِكِ مئاتٍ من الفتيات ، ولا يزالُ لديَّ بقيةٌ من قوةٍ أستطيع بها أن أصرعَك ؛ فإني لا أزال أجدُ في جِسْمِي ريحَ الشباب ، وما عليكِ من شيء إن صرَعتِني ، فاللهوُ المباح لا ينبغي أن يزعجَه تكْليف .

فقامت الفتاة إلى جدتها العجوز ، وحملتْها على يَدَيْها ، وحاولت العجوز أن تتخلَّص منها ، فسقطت على الأرضِ ، فخزِيَت وخجلت ، وخرجت من الديرِ ، وسارَت حتى اختفَتْ عن العين .

حدث ذلك وشركانُ يرقبهُ من بعيد ، ثم قال في نفسِه : لعلّ القدرَ ساقني إلى هذا المكان ليجعل هؤلاءِ الفتياتِ وما يملكْنَ غنيمةً لي . وقَوِيَ هــذا الخاطرُ عنده ؛ فركب جوادَه ، وسلّ سيفَهُ ، ورفع صوتَهُ قائلًا :

أللهُ أكبر ! ! أللهُ أكبر ! ! أللهُ أكبر ! !

فخرجت إليه الفتاة الجميلة غيرَ عابئة ، وقالت له :

انْجُ بنفسِكَ فى حمايةٍ من الليل ، فإنه إذا جاء الصباحُ ورآك البطارقةُ وَقعْتَ فى أيديهم ، وحينئذٍ مالكَ من القَتل مَحيص ولا مهرب ؛ ثم انصرفَتْ عنْهُ ، وأدبرت راجعة ، فاستوقفها شركان قائلًا :

يا سيدتى ؛ إن المتيَّمَ الغريبَ جديرٌ بالترحيبِ والإكرام ، ولا ينبغى أن يقابلَ بالوعيد ، والإنذارِ بوخزِ السِّهام ، وتجرعِ كئوسِ الْحِمَام .

فرجعتْ إليه مبتسمَةً قائلة :

لقد نزلتُ على حكْمِك ، فما حاجتُك ؟ ! فقال :

أترضَيْن أن يلوذَ بدارِك عابر ، ولا يذوقَ لكِ طعامًا قد يكُونُ فى مَسيسِ الحاجةِ إليه ؟ !

فقالت : أرى فى إضافَتِك كرامة ، ولا يأبى الكرامةَ إلا لئيم ، فأنت ضَيفِى ، ولكَ عندى ما للضّيفِ من الإيناس والإكرام ، فانزل على الرحْبِ والسعة .

ثم سارت به وجواده من خلفِه إلى قصرها .

وبينما هى سائرة قال لها :

الآن لى عندك حرمتان : حرمة الصحبة ، وحرمة الضيافة ؛ فأصبحتُ بهما فى حمايتك وذمتِك ، مهما يكُنْ من أمرى معك .

فقالت : كنْ آمنًا فى مُقامِك ، فنحنُ مِلْكٌ ليَمينِك .

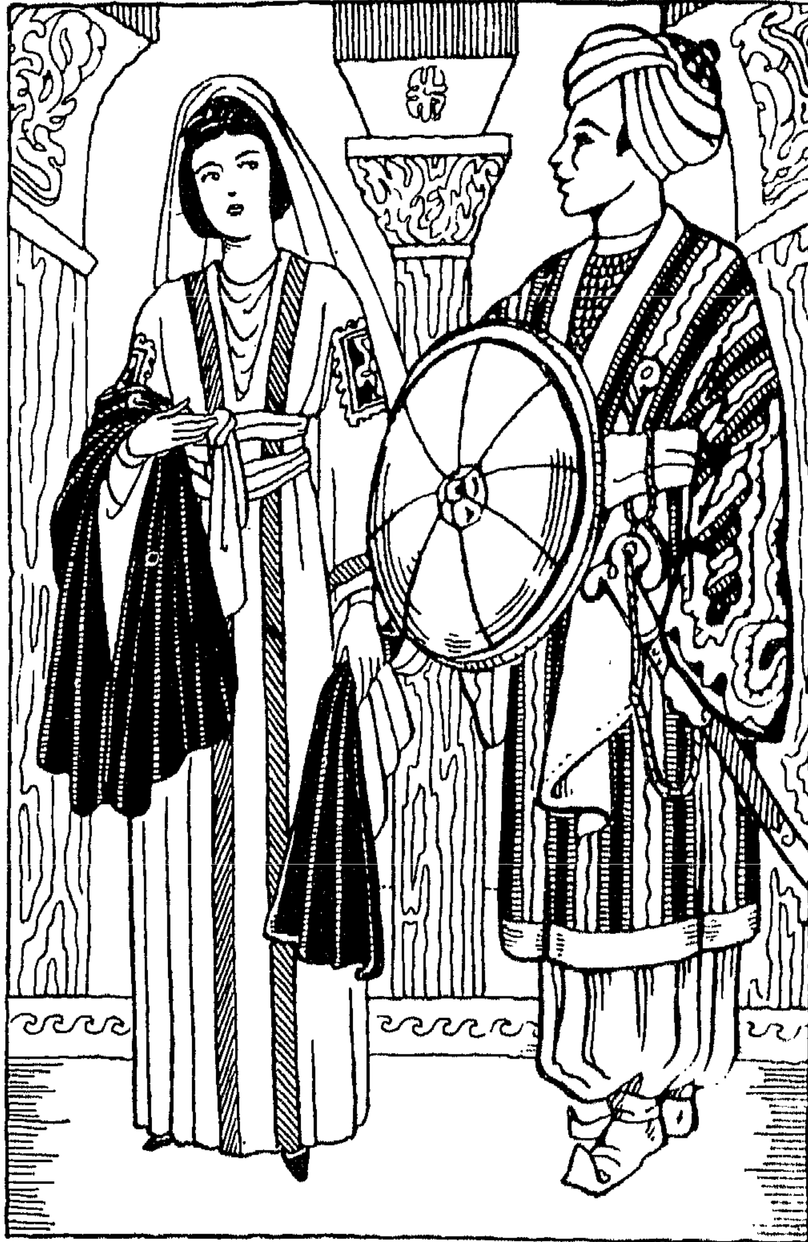
وأطمعهُ وعدُها الكريمُ فيها ، فقال : وددْتُ لو قبلتِ الذهابَ معى

إلى بلاد المسلمين ، فتنعمى هناكَ بما تشتهيهِ الأنفُس ، وتلذ الأَعين ، وتعرفى مَنْ ذلك الرجلُ الذى فى ضيافتك ، والذى أفْسحْتِ له فى صدْرك وكرمك ؟!!

فبدت على وجْهها أمارات الغضب ، وقالت :

لقد أثَرْتَ فى نفْسى كامن الريبة، وما كنتُ أظن أن عقلكَ يستَسيغُ ما قلت ، وكنتُ أظنُّ أنكَ تعلمُ أنىّ إنْ ذهبتُ إلى ملكِكم النعمان فلَنْ أجدَ لى منه مَحيصاً ، لأنه ليسَ عنده من النساء والجوارى من تدنو منى جمالا ، وأما إكرامى إياكَ الآن فلَمْ يكن لأنكَ فلان ابن فلان ، ولكنى أقوم لك بواجبِ الضيفِ على مُضيفه ، ولتكنْ أنت بعد ذلكَ من تكون ، وهبْكَ شركانَ بنَ عمر النعمان الذى جاء بلادنا فى معونة ملك القسطنطينية بعشرة آلافِ فارس يقودهم الوزير دندان . لقد تمنيْتُ أن يأتينى هناك شركان حتى أَبرُزَ لمحاربتِه فى زىّ الرجال ، وأحْبِسَه فى الأغلالِ أسيرًا .

فثارتْ فى نفسِه نَخوَةٌ حامية ، وهَمَّ أنْ يُعرِّفها بنفسه ، ويدعوَها إلى النزال ، حتى تتطامَنَ كبرياؤها أمامَ شجاعته ، ولكنّ للجمالِ سحرا ، وللمحاسن شفاعة ، فأَعرضَ عن الدعوةِ إلى النزال وخضَع لسلطانِ الجمال ؛ ولكنها أدركَتْ أنه فُتِنَ بها ، فواصلتْ سيرَها حتى كانت أمام دَيْر ، فألقتْ بالجوادِ إلى مَن يَرعاه من الخدم ، ثم دخلت الديرَ وشركانُ من خلفها ، فاستقبلها فى دهليزِ الدير المضاء بالقناديل البلّورية جَوَارٍ



شركان ومضيفته ، فى الدير

حِسَان تلمعُ فوق رءوسهنّ العصائبُ الحريرية المطرزة باللآلئ ، ووجد سررًا مصفوفة ، فأمرته أن يستريح على سرير له رَوْعته وفخامته ، ثم تركته وانصرفَت ، ولما استبطأها سأل الجوارىَ عنها ، فأخبرنَه أنها ذهبتْ إلى مخدعها لتنام ، وكلفتْنا أن نقومَ بخدمتِك ، وإعدادِ ما تحتاجُ إليه من طعام وشراب ، ولما طَعِم وشرب ، ذهبَ إلى مرقدِه على السرير الذى أُعِد له ، وذهبت كل جارية إلى مرقدها .

أثارت الوحدة فى قلبه كامِنَ الأفكار ، فذكرَ جيشَه وظن به الظنون ، وندِم أَنْ عصى والده ، وأَغْفل العمل بنصيحته ، فلم يذق النومَ إلا مَضْمضَة . ولما طلع النهارُ وجدَ الفتاة مقبلةً إليه تختال بين جواريها ، فأنستْهُ محاسنها كلّ شىء حتى نفسه ، وبعد أن حيتْه تحية الصباح ألقت عليه نظرةً طويلة فاحصة ثم قالت :

أشرقَ المكانُ بطلعتِكَ يا شركان ، ولعلكَ قضيت ليلتَك فى راحة واطمئنان ! فقال :

سَعِدْتُ بضيافتِك كما هنئت بليْلتك ؛ ولكنْ خبِّرينى : كيف أصبحتُ لديكِ شركان ؟ ! وكيف عرفت أنى هو ؟ ! فقالت :

لئن كذب الناس فلا ينبغى للملوكِ وأبنائهم أن يكذِبُوا ، فلا تُنْكر نفسَك ، ولا تخف عنّى شيئًا من أمرك ، فالصدقُ خيرُ حافظًا ، ولا منجاة إلا للصادقين : ولما لم يجدْ مفرًّا إلى الإنكار قال :

أنا شركان بنُ عمرَ النعمان ، فافعلى بى ما تشائين .

فقالت :

لا خوفَ عليك اليوم ، فأنتَ ضيفى وقد أكلت طعامى ، ولن يصيبَك ضرٌ ما دمتَ عندى . وكانت المائدة قد وضعت أمامه ، فجلستْ إليها معه ودعتْه أن يأكل ، وقد حرصتْ على أن تأكل من كل طعام قبلَه ؛ ولما شبِعا أُحْضِرت ألوان الشراب فشربا ، ثم أمرت الجوارى أن يحْضِرن آلات الطرب ؛ فأمسكت عودا جِلّقيًّا ، وأمسكت كل جاريةٍ آلة طرب أخرى ، وردّدَ الجوُّ ألحان الأغانى الشجيَّة ، وشركان غارق فى لذته وطربه ، ولما جاء الليلُ أوَى كلٌ إلى مضجعه .

وفى صبيحة اليوم الثالث أمرت الجوارى أن يُحْضِرْن شركان إليها ، فذهبن به إليها فى دار أُخرى لم تقع عينُه على أفخمَ وأجمل منها .

وجلستْ معه فى إيوانٍ فسيح من تلك الدار الجديدة ، به أثاث فاخر وتماثيل يدخل الهواء فى جَوفها ، فيُحدثُ صوتًا جميلا يحسبُه السامع صوتَ حديثٍ يجرى بين هذه التماثيل ، ثم قضَت معه هذا اليوم فى حديث أنيسٍ ، ولعبِ شِطرنج ؛ ولما جاء الليلُ سكن كلٌ فى مضجعه .

وبينما هما جالسان غُدْوَةَ اليوم الرابع فى ذلك الإيوان ، ونفْسُه تحدثه أن هذا اليومَ سيكونُ أغدَق نعما ومُتعة إذ سَمِعا فى الدار ضجة ، فالتفتَا إلى ناحيتها فوجدا شبانًا وبطارقة بأيديهم سيوفٌ مشهورة ، وهم قادمون إليهما فى عزْمٍ مشبُوب وحماسةٍ بالغة ، ويردّدُونَ بالرومية :

حلّتْ عليكَ يا شركان غَضْبتُنا ، فأنتَ مقتولٌ لا محالة . وأحس

شركانُ من القادمين ما يريدُون ، وإنْ كان لم يفْهم ما يقولون ، فثارت فى نفسِه المخاوف ، وحَسِبَ أن الفتاة خدعَتْه بما أغدقَتْ عليه من إيناسٍ وكَرَم ، حتى أحضرتْ رجالها وفرسانها ؛ فنظرَ إليها نظرةً ناطِقةً بالأسفِ والعِتابِ ، فوجدَها حائلةَ اللونِ غاضِبَة ، وسرعان ما نهضت قائلة للقادمين :

من أنتُم ؟!

فأجابها كبير البطارقة :

أيتها الملكةُ الكريمة ؛ ألَم تَعلمِى مَنْ ذلكَ الرجلُ الذى عندَكِ الآن ولا تزالينَ تكرِمينه ؟!

فقالت :

ومَنْ أعامنيه ؟! فمَنْ يكون ؟!

فقال : فاتحُ البلدان وأميرُ الفرسان ، شركان بن عمر النعمان ، جئنا لنحمِلَه إلى أبيكِ الملك حردوب تنفيذاً لأمره .

فقالت : وكيفَ عرفَ أبى هذا ؟!

فقال : أخبرتْه العجوزُ ذات الدواهى : أن شركان عندكِ وفى ضيافتك ، وأن حجزَكِ إيَّاه كان سبباً فى انتصار الروم والمسلمين على جيوشنا ، وقد بَعثنا لنُعجِّلَ بأخْذِهِ إليه ليقتُلَه ، وبذلكَ ينْكُص المسلمونَ هاربين، ولا يطمعون بعد ذلك فى قتالِنا وإزعاج أمنِنا .

فقالتْ : وما اسمك ؟

قال : عبدك ماسورة كبير البطارقة .

فقالت : وكيف دخلتَ دارى دون اسْتئذان ؟ !

قال : لم نعتَدْ — نحنُ البطارقةَ — استئْذانا ، وكثرة الكلام الآنَ تقعِدُنا عن الإسراع بالعودةِ إلى المليك .

فقالت : وما خطبُكم إذا كانت العجوزُ كاذبةً فيما أخبرتْ ؟ !

فقال : ليسَ لنا أمرُ صدقِها وكذبِها .

فقالت : إنَّ الذى عندى رجلٌ استضافَنَا فأضفناه ، ولو تبيّنَ بعدَ ذلكَ أنه شركان ما كان لنا أنْ نفرّط فى جَنْبِه ، فارجعوا إلى أبى ، ولا تخزونى فى ضَيْفِى ، وبلغوه أن العجوز كذابة .

فقال : لا نستطيع الرجوع إلى المليكِ من دونه ولو لمْ يكن شركان .

فقالت : أنتم مائة وهو رجل واحد ، فإن رأيتم أن تبرزوا إليه واحدًا واحدًا فذلك ما أرتضيه ، وإن غلَبْتموهُ فخذوه .

فقال : رضينَا بذلك .

فقالت : أنْظِرنى حتى أعرِضَ عليه هذا ! فإن قَبِلَ وإلا فلا يدَ لكم عليه ، وسأكون أنا ومن تحتَ يدى من الخدم والجوارى فداءً له .

وكان شركان على مسمع من هذا كله ، فعلِمَ أنّ أمرَه لم يصلْ إلى الملك من طريقها ، وأنها لا تزالُ حريصةً على الوفاء له ، فلما أخبرته أمر المبارزة استبْشَرَ وقال : أبارزهم وإن كانوا عَشْرَةً عَشْرة ؛ ثم نهض قائمًا شاهرًا سيفه ، فبرز إليه كبيرهم ، فتلقّاهُ شركان بضربة كانت هى القاضيَة ؛

ثم جعل يقتُلهم واحدًا فى إثر واحد ، حتى بقى منهم خمسون ، فوقع الرعبُ فى قلوبهم ، وحملوا عليه جميعهم حملة واحدة ، ولكنه استطاع بشجاعته وثبات قلبه أن يفرقَ جمعهم ، ويدنىَ إليهم أجلَهم ، فلم يبقَ منهم إلا عشرون رجلا نَجَوْا بأنفسهم وهربوا خفية .

وكانت الفتاةُ قد لبستْ ملابسَ الحرب لمعونة شركان إذا ما رأته فى حاجة إليها ، ثم هنأته تهنئةً تنمُّ عما يكنّه صدرها له من محبة ، وقد سألها عن سبب استعدادها للحرب فقالت : لأكونَ رِدْءًا لك وعَوْنًا إذا ما رأيتهم قد ظهَروا عليك فشكر لها عظيم وفائها ، وزادَ اطمئنانه إليْها .

ثم جمعت حراسَها وعنّفتْهم إذ أذنوا للبطارقة بالدخول عليها دون استئذان .

ثم جلستْ إليه مطمئنةً ، وقالت : الآن أُطْلِعُكَ على ما خَفِيَ عنْكَ من شأنِى ، وأقص عليكَ حديثى :

أنا إبريزة بنت حردوب صاحبِ قيسارية ، وهذه العجوز ذات الدواهى التى كانت فى الدير جدتى لأبى ، وهى التى نقلت نبأكَ إلى والدى ، ولاَ إخالُها الآن إلاّ جادّةً فى تدبيرِ حيلةٍ لِهَلاكى ، ولنْ يكون ذلكَ عليْها عَسِيرًا لشدةِ مكرِها ، ولما عرف عَنّى الآن من تشيعى للمسلمين بسببك ، ومن مناصبةِ أَبى العِداءَ من أجْلِك ، وأرَى أنْ نِفرّ من هذا الدير على أنْ تكونَ لى حاميا من الأذى ، كما كنتُ لكَ ردءًا من الهلاك ، فانتفض شركان انتفاضةَ غبطةٍ ونخْوةٍ وقال :



العجوز تخبر ابنها بوجود شركان عند الأميرة

لَنْ يُصيبَكِ ضُرٌّ ما دمتُ حيًّا ، ولكنّى أخشى أن يُضْعِفَ فراقُ أبيكِ من عَزْمِك ، فيخْبُوَ إخْلاصُك ، وأوتى من مأمَنى ! !

فقالت : لقد أَصبح إخلاصى لكَ بمنزلةِ نَفْسِى ، وهـذا عهدٌ بينى وبينَك ؛ ثم طلبَتْ إليه أن يرجِعَ بجنودِه إلى بلادِه ، ويكُفَّ عن مقاتلةِ أَبيها ، ومناصرةِ ملكِ الروم .

فقال : كيف ذلك ، وقد بعثنى أَبى لقتالِ أَبيك من أَجْلِ ما سلبَ من المال والخرزاتِ الثلاثِ ؟ !

فقالت : سأَقُصُّ عليك قصتها مبينَةً مبعثَ المداوة بين ملكِ الروم وأَبِى ، وغدْرَهُ بأَبيك بعد أَنْ يَهزِمَ والدى .

(٢)

قالت إبريزة :

لنا عيدٌ يُسمّى عيدَ الدَّيْر ، ومدته سبعةُ أَيام ، ويفدُ إلى الدير فى هذا العيدِ الملوكُ والأمراءُ والأعيانُ والتجارُ وبناتُهم ، ويَعْـكُفون فى الدير أيامه السبعة ، وكنتُ مِمّنْ يذهبْنَ إليه ، ولكنّ أَبى حجَزنى منذُ سبعِ سنين ، على أثر ما كان من تغيّر العلاقةِ بينَهُ وبين إفريدون ملك الروم بالقسطنطينية .

وذات مرةٍ وفدتْ إلى الديْر فى ذلك العيـد البناتُ على عادتِهن ، ومنهنّ صفية بنت إفريدون مَلك الروم بالقسطنطينية .

ولمـا أرادت العودة أصرّت على أَن تركب البحر وهى راجعة ، فلما

أقلَّها المركبُ ومعها جواريها وحاشيتُها ، وجرى بهنّ على سطْح الماء ، كأنه هلالٌ يبدو فى السماء — طابَ للمركب السُّرَى ليلةً إلا أَقلَّها .

ثم غامت السماء ، وعصفَ الهواء ؛ فعميت السبيل ، وأَضحى السُّرَى فى تضْليل ، وحاد المركبُ عن الجادة ، وكان من البحر فى مَتاهَةٍ .

وإذ ذاك بانَ قلعه لمركبٍ يحملُ عصبةً من لصوصِ الإفرنج تبلُغ خمسمائة رجل ، فأَهْرعوا إليه ، وربطوه فى مركبهم ، واقتادوه بمن فيه إلى جزيرتهم ، وكانوا فرحين بتلك الغنيمة التى لم تكن لهم على بال .

ولكنّ للقدر حكما وتدبيرًا ؛ فقد ساقتهم الريح عنوة إلى حيث قربوا من أرضنا نخفتْ رجالنا إليهم ، فوجدوا مركبهم قد علِق بشعب مزقه، وابتلعهم البحرُ ، فكانوا من المغرقين .

وكانت حاشية صفية قد أسرعت وفَكَّت رباط المركبين ، فوجد رجالُنا مركب صفية لم يمسَسْهُ أذى ، فأتوا به إلى المرفأ ، ونقلوا الأموال والجوارىَ إلى أبى ، وليس فينا من يعرف أن من بين هؤلاء الجوارى صفية بنت إفريدون ملك الروم بالقسطنطينية .

فاختارَ أبى له من هؤلاء الجوارى عشْرًا ، وجعل الباقيات لرجال حاشيته ، ثم اختار خمس جوارٍ من العشرِ وأرسلها هدية إلى والدك عمر النعمان ، وكان فيهن صفية بنت إفريدون ، وكان لا يزالُ أمرها خفيًّا عنا .

وفى أول هذا العام بعث إفريدون والد صفية إلى أبى كتابًا يقول فيه :

إنكَ أخذتَ ابنتى صفية ومن معها من الجوارى والأموال ، من

لصوص الإفرنج الغارقين ، ويتوعَّده — إن لم يسرعْ بإرسال ابنته إليه هى ومن معها من الجوارى — بالحرب والقتال .

وكان هذا الكتاب بعد سنتين من أسر الجوارى ؛ وفى تلك المدة كان إفريدون يبحث عن مصير ابنته ومن معها ، وأين هنَّ ؟ !

فلما دلَّه البحث على أنهنَّ عند أبى أرسل إليه هذا الكتاب .

وماذا يفعلُ أبى حينئذ وكان قد أهدى إلى أبيكَ خمسَ جوارٍ وفيهن صفية بنت إفريدون ؟ !

لم يجدْ أبى مخرجًا إلا الاعتذار إليه بأنه أهدى منهنّ إلى أبيك خمس جوارٍ ، وفيهن صفية ، ولم يكنْ يعلمُ أمرها ؛ ولو أنها كانت فى متناول يد أبى حردوب لبادر بإرسالها إليه فى إعزاز وتجلّة .

قامت قيامةُ إفريدون وامتد عداؤه منا إلى أبيك ، فجهّز جيوشه ، وأرسلهم إلى أبى ليثأر لابنته ، وطلب إليكم أن تساعدوه ، فأرسَل إلى أبيك رسُله ، حتى إذا ماجئتم لمعونته ، وانتصر علينا بمساعدتكم ، انقضَّ عليكم بجنده ، فانتقم منكم ونكّل بكم ؛ وتلك مكيدتُه التى دبرها لينتصر على أبى وأبيك ، ولهذا أرى أن تبادروا بالعودة إلى دياركم ، وأن تقبضُوا على رسله إن كانوا لايزالون بينكم قبل أن يفرُّوا إليه وينقلوا أخباركم .

وأما الخرزات الثلاث فقد أخذها أبى من صفية قبل أن يهديها إلى أبيك ، ثم وهبها لى ؛ وهنَّ معى ، فارجع إلى جندك ، وأسرع بهم إلى بلادك ، قبل أن تقعوا فى يد إفريدون .

فقال شركان : حمدًا لله الذى قيّضك لدفع السوء عنا ، وحماية جيوشنا من الخطر الذى دبِّر لها ؛ ولكن عزيز علينا أن نفارقك .

فقالت سيكون أمدُ ذلك الفراق قريباً ، فاذهب إلى جيشك ، ومُرْهُ أن يعجّل بالعودة ، وستجدنى بعد ثلاثة أيام بين يديك ، ولن تدخل عاصمة ملك أبيك إلا وأنا فى صحبتِك ، فاغتبط بما قالت وسلّم عليها مودّعًا .

وبينما هو سائر بجواده فى تلك الأرض التى كثرت أشجارها وقف جوادُه فجأة ، فانتبه والتفت باحثاً ، فرأى ثلاثة فرسان تسيرُ بهم جيادهم ؛ فتبيّنهم ، فكانوا الوزير دندان ومعه أميران ، وكانوا قد خرجوا باحثين عنه ، فلما رأوه فرحوا به ، ودانوا إليه مسرعين ، وجعلوا يستمعون لحديثه عن نفسه مدة غيبته ، وبيّن لهم فيما حدّث موقف إفريدون من أبيه وجيشه وكيف أخفى مكره فى سِتْر من الاستنجاد به ، وقال : إن رسل إفريدون قد رحلوا إليه ، ونخشى أن نتقاعدهنا فتدهمنا جنوده ، ويبلغ منا ما يريده ، فهيا عجّلوا بالعودة حتى نفوزَ بالسلامة .

وتحركَ جيش عمر النعمان راجعاً ، وجعل يجدُّ فى سيره خمسة وعشرين يومًا ، حتى كانوا على مقربة من ديارهم ، وأَمِنوا أن يدركهم عدوّهم ؛ فأقاموا فى مكانهم هذا للراحة يومين ، ثم استأنفوا المسير إلى الديار ، ولكن شركان تخلفَ عن الجيش ومعهُ مائةُ فارس ، ولبثوا فى هذا المكان يومًا كاملًا ، ثم ركبوا خيْلهم وساقوها إلى بلادهم ، وبينما هم سائرون فى مضيق بين جبلين بغتهم مائة فارس تبرُق دروعهم على أجسامهم ، وتلمع أسلحتهم فى أيديهم ،

فصاحوا فى شركان وفرسانه قائلين :

وحقِّ مريم ابنة عمران لقد بلغنا منكم ما نريد ، بعد ما لقينا فى أثركم من جهد جهيد ، وها نحن أولاء قد سبقنا كم إلى هذا المضيق ، فانزلوا عن خيلكم قبل أن ينزل عليكم منا بؤس وضيق .

فغضب شركان غضبةً عربيةً ، وقال فى أنفة وعزة : لقد بلغ السفهُ بكم أن تُلقوا بأيديكم إلى التهلكة ، فتدخلوا فى أرضِنا ، وتؤذوا بلغْو القول أسماَعنا ، فلا تظنُّوا أنكم ناجُون من أيدينا ، والتفت إلى فرسانه قائلًا :

خذوهم واحصروهم واضربوا منهم كل بنان ، ثم التحمت الفرقتان ، واشتد الضرب والطعان ؛ ولما جاء الليل سكت عنهم القتال حتى يأتيهم النهارُ بضوئه ، وتفقّد شركان فرسانه فى الليل فوجدَ منهم خمسة وعشرين جريحاً ، ولكن جروحهم لم تكن بمانعتهم من أن يخوضوا غمرات القتال إذ كانت فى أماكن من أجسامهم غير خطيرة ، وكانت هِىَ فى ذاتها يسيرة غير بالغة ، وقال لهم حاثًّا على الجهاد فى شدة وعنف :

عجبت لهؤلاء الفرسان ، لقد خضتُ غمرات القتال كثيراً ، وبارزتُ صنوفاً من أبطال العرب وغيرهم ، فما وجدتُ أصبرَ على الجهاد منهم .
وقال فرسانه :

ولقد رأينا أعجب من ذلك ، فمن بينهم فارسٌ هو زعيمهم إذا تمكن من أحدنا وكانت حياته بين أصبعيْه ، أغفله وتركه ليفر من بين يديه ، ولو أراد قتلنا لهلكنا .

فقال شركان : ولأى سبب كان هذا شأن زعيمهم منا .

فقالوا : ذلك ما لا ندريه ، ونحن منه فى عجب عجاب .

فقال : نطلب فى الغد مبارزتهم فارساً فارساً ، ونرجو من الله أن يؤيدنا بنصر من عنده ، فذلك أقرب سبيل لانتهاء ما بيننا وبينهم .

وكذلك بات أعداؤهم على نية مبارزتهم واحدًا واحدًا .

ولاح الصباح والطائفتان فى الميدان ، فنادى منادٍ من الأعداء قائلًا : لا يكون هذا القتال إلا مبارزة ، فلتبرز فرسانكم إلى فرساننا فارساً فارساً.

وجعل فرسان الأعداء يغلبون ويأسرون فرسان شركان بالمبارزة واحداً بعد الآخر ، حتى بلغ عدد الأسرى آخر النهار عشرين فارسًا ، وبات شركان فى بقية فرسانه حائرًا لا يرى وجه الحيلة فى كشف ما نزل بهم ، وأعلن أنه سيخرجُ غداً لمبارزة زعيمهم ، وسيعرض عليه قبل المبارزة صُلحًا كريمًا بينه وبينهم، فإن أَبى إلا المبارزة بارزناه، وما النصرُ إلا من عند الله.

وكانت غداة النهار فطلب شركان زعيمهم فرأى فارسًا قد انفلت من صفوفهم إلى مجال المعركة ، وكان شاباً أمرد مشرق الوجه ، يلبس قباءً أزرق ودرعاً متلاحمة النسج ، يهزُّ سيفاً ينافِسُ فى التألُّق وجهه ويديه ؛ قد ركب جوادًا أدهم ، تلمع فى وجهه غُرّةٌ كالدرهم ؛ ثم نادى بلسان عربى مبين :

يا شركان بن عمر النعمان ؛ احقن دماء فرسانك ؛ وابرز أنت إلىّ ، فأنا صاحب فرسانى ، كما أنك صاحبُ فرسانِك ، فمن غلب منا قرنه أخذه

أسيرًا هو ومن معه .

فقال شركان : وماذا علينا لو أصلحَ ما بيننا عقلٌ ومشُورة .

فقال الفارس : إن سيوفنا تهتزُّ فى أيدينا عن عقلٍ وروِيّة ، فلا تطمع منا فى غيرِ ما سَمِعْت .

ونشطت المبارزة ، وتعلقتْ أنفاس الطائفتين :

هــذه تتوقعُ الغلب لسيدها ، وتلك ترجو نصرًا مؤزرًا لقائدها ، إلى أن أدبرَ النهار وولّى، وأطل الليلُ يغْشَى ، فأوى كلٌّ منهما إلى فرسانه مرتقباً بكرة نهاره .

وفى أثناء الليل قال شركان لصحبه : وددتُ لو أن مثل هذا الفارس ومن معه فيكم ، ولقد عجبتُ من شأنٍ فيه ؛ ذلك أنه إذا تيسَّرَ له ضربة قاتلة فى خصمه بسنان رمحه ، أداره فى لمح البصر وضرَبه بطرفه إبقاءً عليه ؛ وتلك حالٌ تعوقُنى عن التعجيل بقتله ، فما جزاء الإحسان إلا الإحسان ، ولا أدرى غدًا ما يكون من أمرى وأمره ، والله يخلقُ مايشاء ويختار ! !

وقام النزال بينهما على تلك الحال حتى استوت الشمس فى كبد السماء ، فلجأ الفارس إلى حيلة تنتهى بها تلك المبارزة ، وذلك أنه لكز جواده لكْزةً عنيفة ، فانفلت مسرعاً كأنه السهْم ، ثم أعجله بكبْح جماحه ، بأن قبضَ إليه لجامَه مغيِّرا به اتجاهه ، فكبا الجواد للكْزه ، وقبْض لجامه ، وتغيير اتجاهه ، فى آونةٍ واحدة ، فوقع الفارس على الأرض ، وانكبَّ شركان عليه يريد أن ينال منه ؛ فصاح الفارسُ فيه قائلًا :

ما هكذا يا شركان تفعلُ الفرسان بالبنات ؟ !

فنهض شركان محدقاً نظره فى ذلك الفارس ، فإذا به صاحبته إبريزة بنت حردوب ، فابتسم لها ابتسامة عجبٍ وفرحة ، وأقبل عليها محيياً مسلماً ، ثم سألها عما فعلته به و بفرسانه ، فقالت :

أردتُ مداعبتَك واختبارك ، وهؤلاء الفرسانُ الذين معى جَوَارِىٌّ وجميعُهن بنات أبكار ، وقد غلبْنَ فرْسانك ؛ ولولا أنى احتلتُ وجعلت جوادى يكْبُو ما نلتَ أنت منِّى نَيْلا .

فأمر شركانُ فرسانه أن يحيُّوها ويكونوا فى خدمَتِها ، كما أمرت هى جواريها أن يطلقْنَ الأَسرَى ، ويكنَّ فى طاعة شركان وخدمَتِه . واجتمع بذلك شملُ الطائفتين ، وسار شركان وإبريزة ومن مَعهما إلى دار أبيه فى غبطة شاملة .

ولما كان على مقربةٍ من بغداد عاصمة ملك عمر النعمان أبيه ، أرسل إليه يعلمُه نبأَ قُدومه ، ويطلبُ إليه أن يتلقّى إبريزة بنت حردوب بما يليقُ بها من حفاوة وإجْلال ، وكان قد أشار عليها أن تأمر جواريها أن ينزِعْنَ عنهُنَّ لباس الحرب والتنكر فى زىّ الفرْسان ويَلبَسْنَ ملابسهنّ فصدعت بما أشار ولبِسْنَ ثيابهُن النسويَّة

وجاء دندان فى رجالٍ كثير ، واستقبلوا إبريزة استقبال حفاوةٍ وإكبار كان له أثرٌ عظيمٌ فى نَفسِها ، ودخلت بغداد فى جَوٍّ من إجلالها ، والسرور بقدومها ؛ وهناك فى قصرِ المليك عُمَر قص عليه ابنه شركانُ ما لقيهُ فى

غزوتِه هذه ، وما قدمته له إبريزة من خالص النصح ، وعظيم المعونة ، وكريم الوفاء ؛ فعظمتْ فى عين أبيه وجعلَ لها ولجواريها قصْرًا خاصًّا بها ، وأمدَّها فيه بكل ما تحتاجُ إليه من وسائل الراحة والنعيم .

ثم سألها عن الخرزات الثلاث فقالت : إنهن عندى ، وقامت إليهن ، فأحضرتهن ، وأعطتْه إياهنَّ ، ولكنها سلبت فؤاده بحسْنِها ، فذهلَ عن كل شىء إلا التفكير فيها ، وتدبير ما يجعلُها زوجةً له .

أخذ المليك الخرزات الثلاث ، فأعطى ولديه ضوء المكان ونزهةالزمان اثنتين منها ، لكلٍّ خرزة ؛ أما الثالثة فناولَها ابنَه شركان ، ولكنه سأل أباه عن الاثنتين الأُخريَيْن ، فقال : جعلتهما لأخوَيْكَ : ضوء المكان ونزهة الزمان .

خرج شركان من عند أبيه يئزُّ صدرُه أزيزَ الغضَب والغيظ، لأنه لا يحب أن يكُونَ له منافِسٌ فى المُلكِ بَعدَ أبيه ، وذهبَ إلى إبريزةَ تعلو وجْهَه غَبَرَةُ حُزْنٍ وأَسًى ، فسألته عمَّا أَلَمَّ به ، فقص عليها غيرتَه من أخيه ضوء المكان ، فطمأنتْه ، وأسكتتْ عنه غيظه ، وطلبتْ منه أنْ يُعطيَها خرزتَه ، فناولَها إياها ، ووَعدتْه أن تكُونَ هِيَ له لَا لِأَحدٍ غيرِه ، وإلا آثرت الموتَ على الحياة ، لأنها فهمتْ منه أَنَّ أَباه يودّ أَن تكُون له زوجة .

جعلَ الملكُ عمر يختلف إلى إبريزة فى قصرها حيناً بعد حين ، فاطمأن إليها واطمأنت إليه ، وتحابَّا وتعاشَرَا . فلما شاع فى الناس ما بينهما من توادٍّ

خشيت سوء العاقبة ، ولا سيما أن شعورها نحوه بدأ يضعف حينما تأكدت أنه اختلسها ذات ليلة وتسلل من القصر فى الظلام .

وقد أخبرتها مرجانة أن الملكَ عند انصرافه ، أمرنا ألَّا نفتح عليك باب المقصورة حتى تستيقظى ، فحملتْ من الغمِّ ما تنوءُ بحمله الجبال ، وأمرتْ جواريها أنْ يُذِعْنَ أنها مريضة ، وألَّا يدخُلَ عليها إنسان حتى تنظُرَ ما يفعلُ اللهُ بها .

وبلغ عمرَ النعمانَ نبأُ مرضِها فأمر أن يُؤْتَى إليها بكلِّ ما يخفف علتها ويُريحُها ، وكانت قد علقتْ منه ، فلما قربَ مخاضُها خشيتْ أن تلدَ فى قصرها ، فيُعْرفَ أمرُها ، فتصبح فى خِزْى وعارٍ لا تستطيع الحياة معهما ، وأشارتْ على جاريتها مرجانة أن تخلقَ حيلةً عاجلةً للفرارِ إلى أبيها وأمها ، على ألَّا يراها ولا يشعُرَ بها إنسان ، فقالت :

ليسَ أمامى الآن مَنْ أظنُّه نافعاً إلَّا عبدٌ يُسمَّى الغضبان ، وهو من عبيدِ الملك ، مشهورٌ بالشجاعةِ والجرأة ، وكان من قُطَّاعِ الطرق ، وله فى ذلك حوادثُ رهيبة ؛ وُكِلَ إليه أمرُ خدمتنا ، وهو مُلازمٌ بابَ قصرنا ؛ وقد غمرْناهُ بإحساننا ، وأرجُو أن يكونَ قد أسَرَهُ هذا الإحسان ، وإذْ ذاك لا يتأخرُ عن معُونتنا ، وإذا منَّيْته بمكافأة قيِّمةٍ كان أسرعَ إلى تلبيةِ ما نُريده ، فلو رأيتِ يا سيدتى أن أُكلمَه فى ذلك لننظر ما سيكون ؟!!

فقالت : أحضريه يا مرجانة ، وسأتحدثُ إليه فى ذلك بما أرَى .

فلما حضرَ بين يديْها أحست فى نفسِها انقباضاً ، وكادت لنفورها منه أن

تأمُرَه بالرجوع إلى حيث كان ، دونَ أن تكلفَه أيَّ شيء ، ولكن الضرورة أرغمتها على أن تستعين به ، وإن كان قلبُها لا يطمئنُّ إليه،فقالت : هل أَجدُ عندك رغبةً في أن تنفّسَ كُربة ، على أن يكُون لكَ من المال ما يُغنيك ؟

فقال وقد أعجبه جمالها ، وأضحى حريصاً على أن تكون له دون أحد سواه : نَعمْ يا سيدتى ، وذلك ما أخذتُ به نفسِى فى آخر حياتى لأُكفِّرَ عما مضى من سيئاتى ، ولا أُريدُ جزاء ولا شكورًا .

فقالت : وهلْ أنت كاتمٌ أَمرَنا إذا نحنُ وَضعناه بين يديك ؟

قال : نعمْ ؛ ولو استطعتُ أَلَّا تتحدثَ به نَفسِى لفعلت .

فقالت : جهزْ لنا خرجيْن من المال ، وشيئاً من الزاد ، وما يحملنا من الدواب أنا وأنت وجاريتى مرجانة ، واهرُب بنا فورًا من هذا القصرِ إلى بلادنا ، وهناكَ تعيش عيشةً راضيةً إن رغبتَ فى المقام معنا ، وإن أردتَ الرجوع أَمددْناكَ بما يُسْعِدُكَ من المال.

فوجدَ العبد فى هذا القول تحقيقاً لمطمعه ، إذ قدرَ فى نفسه أنه إذا خرجَ بهما فى الفلاة ، وانقطع بهما عن العمران ، قضى معهما ما يُريد، وإن منعتاَ عنه أنفسهما قتلهما ، ورجع بما معهما من المال ؛ وقال : بعد برهةٍ قصيرة سيكون ما تريدين .

وانسلوا من القصر خفية ، وجعلوا يقطعون السبل حتى ابتلعتْهم المسالكُ بين الجبال ، وكان بينهم وبين بلاد حردوب مسير يوم ، فجاءها المخاض ، وأعجزَها عن السيْر فأمرته أن ينزل بهما حتى تَضَع حَمْلَها ، وتَذْهبَ

عنها أوجاعُ الوضع وآلامُه ، ثم يستأنفوا السيْر إلى أبيها .

فلما وضعتْه ذكرًا ، وزال ما بها من تعبٍ ووجَع ، قال الغضبان : ما رضيتُ بالخروج معك إلَّا لأنى أحببْتُك ، والآن أريدُ أن أنعمَ بوصْلك .

فقالت : ثكلتك أمُّك أيها العبد الأسود ! ! أتظنُّ أنِّى خرجت لأفِرَّ من قصرٍ منيف إلى شيخٍ مخيف ، ومن مَلكٍ له عزته وكرامته إلى عبدٍ كأنه جيفة قذرة ؟!! ليتَ قوةَ بدنك فى عَقلك وخُلقكَ .

فقال : لا أفْهمُ شيئًا مما تقولين ، فإمَّا رضيتِ وإمَّا قتلتُك .

فقالت : مُحال أن يكون شىء مما أردت ، فافعل ما تشاء ، فلأن يموت المرء مظلومًا كريمًا خير من أن يحيا فاجرًا لئيمًا .

فاشتدَّ غضبُه ، وضربها بسيفه ضربة جعلتها نصْفَيْن ، ثم أخذ المال ، وركب جواده ، ورجع يطوى السبل بين الجبال طيًّا .

أما مرجانة فقد حملت ابنَ سيدتها ، وجلست بجوارها تبكى بكاء مُرًّا ، حتى وافاها جيش حردوب والد إبريزة ، وكان قد بلغه أنها هربت إلى عمر النعمان ، واعتقد أن أحدًا أغواها وأضلَّها ، أو خدعها ومكر بها ، حتى فارقتْ أهلها ، فجاء بجيشه ليأخذَها عَنْوة ، فعثر عليها هى وجاريتها مرجانة والوليد الجديد ؛ فلما رآها مقتولة حزن حزنًا أليمًا ، وسأل الجارية عمَّن فعل بها هذا ، فقصت عليه ما حصل من عمر النعمان ، وأن الذى قتلَها عبدٌ من عبيده يُسمَّى الغضبان ؛ فأمر أن تحمَلَ فى محفة ، ورجع بها هى وولدها ومرجانة جاريتها إلى قيسارية ، وبعد أن واراها الترابَ دخلَ على

أمه العجوز ذات الدواهى ، وأخبرها ما فعل النعمان وعبدُه الغضبان ؛ فقالت : لا تَحْزَنْ وسأقتلُ فى ابنتِك عمر النعمان وأولاده بما أدبّره من حيلةٍ تثلجُ صدركَ ، وتكونُ مثارَ دهشةٍ فى كل نفس ، عَلَى أن تمتثِلَ أَمرِى ، وتكونَ لِى كما أُريد ، فقال : مُرِى بما تشائين ولك الطاعة .

فقالت :

اخترْ عددًا من حِسان الجوارى الأبكار ، وأحضرْ لهنَّ حكماء وعلماء مُسلمين ، ليعلموهُنَّ الحكمة والأدب ، وأخبارَ العرب ، ومن سلف من أُمراء المسلمين وملوكهم ، ويثقفوهن ثقافةً إسلامية اجتماعية ، فيعرفْن كيف يخاطِبْن الملوكَ ، ويعشنَ مَعهم ، ويُحْسِنَّ القيام بخدمتهم ؛ فإنى أعلَمُ أنَّ عمر النعمان يحبُّ النساء ، وعندَهُ منهُن عددٌ كثير ، ولا يُقلقْك طول المدة ، فالثأرُ لا يَنْسَخُه مرور السِّنين ، والاستعدادُ للتغلُّبِ على العدُو لا تُستطالُ معَه مُدة ، وإنى لا أبدأُ فى تنفيذ حِياتى حتى تُصْبِح الجوارى عالماتٍ حكيماتٍ أديباتٍ .

فقال حردوب : وإنى لفاعلٌ مابه تُشيرين ، وأرجو لكِ التوفيق فيما تُدبِّرين .

وبعثَ لساعتِه البُعوثَ لإحضارِ عدد من العلماء والحكماء المسلمين أينما كانوا ، ولما حضروا أسلَمَ إليهم عددًا من حسانِ الجوارى ليعلموهن ويثقفوهن ، وجعلَ لهم قصرًا مُستقِلًا ، هيأ لهم فيه حياة هانئة وارفةَ النَّعيم والرخاء .

عَلِمَ عمرُ النعمان هُروبَ إبريزة فأصابَه غمٌّ عظيم ، واشتدت قَسْوتُه على جُنده وحُرَّاسه ، وجعلَ يُفكِّرُ فى سبيلٍ للبحثِ عمن كان له يَدٌ فى تيسير هذا الهرب ، وبينما هو غارقٌ فى تفكيره وحزنه دخل عليه ابنه شركانُ قادماً من سَفَرِه ، فسأله عما أحزنَه ، فقال :

مرضَتْ إبريزة وأمرتُ ألَّا يَدْخُلَ عليها أحدٌ حتى تُشْفَى ، وبلغنى الآن أنَّها هربتْ ، ولا أدرى لها سَبيلًا ، ولا أعرفُ كيفَ هربت !! ولا مَنْ له يدٌ فى هَرَبِها !!

فنزلَ هذا النبأُ على شركان نزولَ الصاعقة ، وانطوتْ أحلامُه التى كان يرجُو لها تحققاً ، وقد تحالَف على جسمِه أمران ثقيلان : حزنُه على إبريزة ، وحَسَدُه أخَاه ضَوءِ المكان . وبعد أيام بَدَا لِأَبيهِ هُزَالُه ، وحالَ لونُه ، فسأله أبُوه عما بِه ، فقال : لا أَكتُم شيئاً عنْكَ ، فقد جَزِعتُ مِنْ وجُودِ أخٍ لى ينازعُنى الملكَ من بَعدِك ، وزادَ حزنى أنك تعنَى بتربية أَخوَىَّ : ضوء المكان ونزهة الزمان ، وتعليمهما ، وأخشَى أن يشتدَّ حَسَدى لهما فيُضلِّنى ويدفعنِى إلى قتلهما ، فأكونَ بذلك قد ارتكبتُ أمرًا نكرًا ، واجترحتُ خطيئةً كبرى ، أعدْتُ بها عهدَ هابيل وقابيل ، فلو وليتَنى بقعةً من بقاعِ ملكك ، أبتعدُ فيها عنْ مثارِ الجزع والحسد ، وتشغلنى شئونُها عن التفكير فيما يغمنى ويحزننى — كان ذلك خيرًا لى ولأَخوَىَّ ؛ فأجابَ رغبته وولَّاه دِمشق ؛ فسافرَ إليها ، وتولَّى شئونها .

(٣)

كان ضوء المكان وأختُه نزهة الزمان قد قطعا مَرْحلةً من شباب العمر، وتعلما الأدبَ والحكمة والدين والعلم، وعُرِف ضوء المكان في بغدادَ بمحبته للعلم وأهلِه، وحِرْصه على العبادَةِ وقراءة القرآن، فأحبه الناس حبًّا عظيماً، وعلم ضوء المكان أن قافلة خارجة إلى الحج وزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم، فأغرِمَ بالذهاب معها، واستأذن أباه فأَبَى ووعدَه أن يصحبَه إلى الحج والزيارةِ في العامِ المُقْبل، ولكن هذا الوعدَ لم يكنْ كافياً لإطفاء نار الشوقِ إلى حَج البيتِ وزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم، فذهبَ إلى أختِه في مقصورتها فوجَدها تصَلى، فانتظر حتى خرجتْ من صلاتها، وأخبرها أنه استأذَنَ أباه في الحج فأَبَى، وأمهلَه إلى العام القادم؛ ولكنَّه مُصرّ على أن يَصحبَ القافلةَ سِرًّا، وعلى غيرِ علمٍ من أبيه.

فقالت: وأنا معك، فإني مشتاقة إلى زيارة قبر نبينا عليه الصلاة والسلام، وراغبة في التعجيلِ بأداء فريضة الحج، قبل أن يَدْهَمَنا الأجَل ونحشَر في الآخرة آثمين.

فقال: إذا جَنَّ الليلُ فاخرجي خِفْيَةً، وسأكونُ في انتظاركِ بالمطايا، وما نحتاجُ إليه من المال، بالقُربِ من بابِ القصر؛ ثم تركها مُتفقَيْن.

وفى الموعدِ المضروبِ خرجت نُزهة الزمان بعد أن لبست ثيابَ الخروج ، وتجهزت ؛ فوجدت أخاها ينتظرها ، وقد أعدَّ العُدة للسفر .

وكانا مع القافلة ، وكَتب الله لهما التوفيق ، فأديا مناسك الحج وزارا قبر المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ثم عنَّتْ لهما فكرة زيارة بيت المقدس وقوَّتها فى أنفسهما أُختُه ، فصاحبا ركْبًا ذاهبًا إليه ، وهناكَ استأجرا حجرةً للمُقامِ فيها مدةَ إقامتهما ، وكانا مسرورين بتلك الرحلة الدينية المباركة ، ولكن عكَّرَ صَفْوَهما مرضُ ضَوءِ المكان ، فأجَّلا عودتَهما حتى يبرأَ من مرضِه ، ويقدِر على احتمال متاعبِ السَّفر ؛ ولكن المرض جعلَ يزدادُ على مَرّ الأيام والشهور ، حتى مضت سنةٌ كاملة ، أَتَتْ على جميع ما كان مَعهما من المال ، فأصبحا صِفْر اليدَيْن ، لا يملكان شيئًا ؛ ثم تماثلَ ضوء المكان للشفاء واشتهَى أنْ يأكُل لحمًا مشويًّا ، ولكن من أين لهما الحصولُ عليه ، وهما لا يملكان ما يشتريانه به ؟! فعرضت عليه أُختُه أن تخرجَ طالبةً خدمة أحد الموسِرين من الأعيان ، لتستعينَ بأجرتِها على الإنفاقِ على أخيها قائلة له : ليس فى الخدمةِ عارٌ ما دمنا نتخذُها وسيلةً للمعيشةِ ، ودفعِ غائلة الجوع والعوَزِ عنا ؛ وأنتَ تعلم ما قِيلَ : لا يقعدُ أحدكُم عن طَلبِ الرزق وهُو يقول : اللهم ارزقنى ، وقد علم أن السماء لا تمطِرُ ذهبًا ولا فضة .

فقال : كما تشائين ، والله يتولاكِ ويرْعاكِ .

وخرجتْ نزهة الزمان هائمة تبتغى الكَسْبَ والخدمة ، وانتظرها أخوها يومين كاملين فلم تَعُدْ ، فغمَّهُ فَقْدها ؛ وخرجَ إلى سوقِ المدينةِ متحاملاً على نَفسه ، يشكو الجوع والمرضَ والهزال ، ويتململ تململ اللديغ حزناً على أُختِه التى لا يعرف لها مكاناً ، ولا يَدرِى ، أهى ميتةٌ أم حيَّة ، وإذا كانت من الأحياء أهى فى نعيم أَم فى شقاء ؟ ! فرثى الناسُ لضعفِه وفقْره ، وأعطَوْهُ شيئاً من الزاد يتبلَّغُ به ، وسألوه عن بلده فقال : بغداد ، فأحضروا جَمَّالاً ، وأعطوْهُ أجرةَ حَملِه إليها ؛ فأركبه هذا جملَه ، وسار به إلى بغداد ، ولكنه خشى أن يموت فى الطَّريقِ فيُعزَى إليه موتُه ، فألقاه بجوار مَوْقدِ لحَمامٍ ورجَع .

وفى الصباح جاء الوقادُ لمزاولة عملِه فى موقدِه ، فوجدَ ضوء المكانِ مُلقًى على الحَطبِ وهو لا يَتحرك ، فأَقْبلَ عليه يتعرَّفه ، فظَنَّ أَنه من مُدمنِى المخدِّر فقال : يعكفُ الواحدُ منكم على ما يضره ويؤذيه حتَّى يفقد حِسَّهُ وَوَعْيَه ويَرمِى فى المزابِلِ نفْسَه ، مُضيّعاً كرامتَه التى فضَّله الله بها على كثير من خَلقِه ؛ فنظرَ ضوء المكان إليه نظرةَ استغاثةٍ واستنجادٍ وقال :

غريبٌ براه المرض ، وفقَدَ المُعِين ، وابتُلِىَ بالهم الشديد ؛ فاقشعر جلدُ الوقادِ لِمَا سمعَ ، وقال :

يا أَسَفاَ عليك ! اغفِرْ لى خطيئتِى فيك ، فما كنتُ أَظنك هذا الغريب المريض الذى له علينا حقُّ الإيواء والإكرام .

ثم أخذَه إلى بيته فأطعمه ، وألبسه ثياباً نظيفة من عنده ، وكفَلَه كفالة الأخ لأخيه ، ودعا الله أن يجعلَ سلامة هذا الغريب وعافيته على يديه ، فاستجابَ له وشفاه ، وألبسَه ثوب القوة والعافية ؛ فجلسَ إليه الوقاد وسأله عن حاله وأهله وبلده ، فقص عليه ما جرى له ، وأسفه على أخته التى فقَدَها ، وشكر له جميلَ صنعه ، ووعدَه أنْ يجزيه على مروءته وفضلِه خير الجزاء ، إذا ما ابتسم له الزمان ، ثم عرض عليه رغبتَه فى العودة إلى بغداد ، وأن يكون له فضل المعونة فى عودته بقدرِ ما يتيسَّر له ، فعز على الوقاد أن يسافرَ وحدَه ، وأصرَّ على أن يصحَبه هو وزوجتُه ، وإن طابَ لهما المقامُ هناكَ اتخذاها لهما مقرًّا ، وأخذ رأى زوجته فى ذلك فرضيَتْ .

وساروا حتى بلغوا دمشق فأقاموا بها خمسة أيام ماتت فى أثنائها زوجةُ الوقاد ، فخسرا بذلك خيْرَ عشيرٍ ومُعينٍ ، ثم صَحِبا قافلةً إلى بَغداد .

(٤)

أما نزهة الزمان فقد خَرجتْ باحثة عَنْ عملٍ فى بيتِ غَنىّ تأخذ منه أجرًا تنفِق منه على أخيها ، فتطعِمُه ، وتعالجُه حتى يبرأَ من مرضه ؛ فجعلَ يتلقَّفُها شارعٌ بعدَ شارع ، حتى رآها بدَوِىّ ، فاسترعاهُ جمالُها على ما هِىَ فيه من حقارة الثياب ، وهُزالِ الجوع ، فاستوقفَها وسألها :

مِن أَين أَنت أَيتها الفتاة ؟ !

فقالت : أنا غريبة ، ولستُ مِن هذه المدينَة ؛ وأَبحثُ عنْ عملٍ أدْفَعُ بأُجْرتِهِ ذُلّ السؤال .

فقال : لقد أَكرمَكِ اللهُ يا بنيتى بى وأَكْرمنى بكِ ؛ فقد رزقتُ سبع بنات لم يترك الموتُ لى منهن إلا بِنْتًا ، وأودُّ أن تذهبى مَعِى لتكونى أختًا لها ، وتُنسيها الحزْنَ على أَخَواتها ، وتطردِى عنها وحْشةَ الوَحْدَة ، وتنعَمى معها بما وهَبَ لى الله من غِنًى وثراء .

فقالت : إنّى غريبة ، ولى أخ مريض ، وليس معه أَحد ، فإن قبلتَ أن أكونَ معها نهارًا ، على أن أكونَ مع أَخِى ليلاً ، فإنّى ذاهبةٌ معكَ ، وإلَّا فالله يتولاك ويتولاها ويتـولانى أنا وأخى ، ويجعَلُ لى من همى مَخْرَجا ، ويرزقنى من حيث لا أَحتَسِب ؛ ولكَ أَنْ تقدِّرَ وتختارَ .

ففرِحَ البدَوِىّ وأيقَن أنه ظفر بِها ، وقدْ كان مُصِرًّا على أَخذها منذ أن رآها ، وقال :

رضيتُ بما قلتِ ، وسمعتُ منكِ ، وإنْ رأيتِ أَنْ تنقُلى أَخاكِ إلى منزلى على أنْ أَقومَ بحاجتِكما فذلك يُرضِينى ويُسعِدُنى ، وأرجُو به من الله حُسنَ المثُوبة .

فقالت : إن رضيتَ بما قلتُه لك فإنى ذاهبة معَك ، واللهُ شهيدٌ على ما بينى وبينك .

فقال : رضيتُ يا بنتي ، ويسرُّني أن تكوني مستريحة .

وكان ذلك البدَويّ فاتكاً فاجرًا ، يعيش على إزعاج الناس ، وقطع الطرق ، وقتل عابريها ، ونَهبِ أموالهم ؛ فجعل يتحدث إليها بما يقرّبها من الاطمئنان إليه وهما سائران ، حتى خرجَ بها من المدينة إلى عُصْبَتِه التى كانتْ تنتَظرُه، فأردَفَها خلفَه ، وجَدُّوا فى السير حتى بَعدُوا ؛ فساورها الشكُّ فى صدقه ، وظنتْ أَنها وَقعتْ فى شرَكِه ، وتوقَّعتْ منه السُّوء ، فبكَتْ بكاءً مُرًّا ، فقال :

ما يبكيكِ يا بنتى وقد نزلت على حكمك ؟ !

فقالت : إن بُعدَنا عن المدينة أثار فى نفسِى ريبةً فى صدقك ، وأخْشَى أنْ تفرِّق بينى وبين أَخى ، الذى ينتظرُنى وينتظرُ معونَتى .

فقال وقد أَصبح بها بين الجبال :

لا تنتظرِى لقاء أخيكِ أو عودَةً إليه ، وإن لم تَكفِّى عن البكاء أَوجعتُك ضرباً بالسَّوْط .

فقالت : ألم تستكثرْ خيانة فتاة غريبةٍ محتاجة مثلى ؟ ! ألم تعلَمْ بأنَّ اللهَ يَرَى ؟ !

فقال وقد تأثر من قولها :

لا تبكى ، وسأبيعك إلى رجلٍ غنيّ من أشرافِ النَّاسِ ، تنعمين فى كَنَفِه ، وربما رَثى لحالكِ ، فأحضَر إليكِ أخاكِ ، أو بعثك إليه .

فقالت وقد رجَتْ أن يكونَ لها بذلك البيع أمل فى لقاءِ أخيها :

ولكَ شكرى إن فعلتَ ذلك ، ولله الأمرُ من قبلُ ومن بَعدُ ، ثم استمروا فى السير حتى كانوا بمدينة دمشقَ التى هى فى ولاية أَخيها شركانَ ، ولم تكنْ تعلَم أن أخاها والى المدينة وأَميرُها .

وتركها البدوىُّ فى بيته ، ونزل إلى سوق التجار بالمدينة ، وقال :عندى جارية ذاتُ حُسْنٍ ، وجمال ، وأَدبٍ ، وعلم ؛ ولها أخٌ مريض فى بيت المقدس ، وقد كادتْ تقتل نفسها غمًّا على فراقِ أَخيها ، وظهر عليها منْ حزنِها ضَعفٌ وهزال ، وأحبّ أن أبيعَها لمن يحسِنُ عشرتَها ، ويعدها أن يحضرَ إليها أخاها ، وله عندى لقاء ذلك ألا أغلو فى ثمنِها ولا أشتطّ .

فقال أحد التجار : إنى أشتريها بعد أن أراها .

فقال الرجل البدوى : تعالَ معى إلى منزلى لتراها وتُبْرِمَ صفقة بيعها .

فلما كانا فى المنزل ناداها البدوىّ قائلا : يا ناجية ، وكان قد سماها بهذا الاسم ، فلم تجبه إلا بالبُـكاء .

فقال للتاجر — مشيرًا إليها — : ها هى ذى قاعدة ، فقم إليها ، وانظر فيها ما تشاء .

فذهب إليها وقال :

سلام عليكِ يا جارية ! كيف حالك ؟

فقالت : كان ذلك مقدّرًا علىَّ فى علم الغيب ؛ ثم ألقتْ عليه نظرةً ، وقالت فى نفسها : ذلك رجلٌ وَسيم الطلعة ، تبدو على وجهه ملامحُ المروءة والنَّخْوة ، ولعله قدِمَ ليرانى ، ويستمع لقولى ! ! فلأحسن إليه فى

الـكلام حتى يحرصَ على شرائى ، فهو خير لى من ذلكَ البدوىّ الوغد اللئيم ، ثم أجابته :

وعليك السلام ورحمة الله ؛ وأما سؤالك عن حالى فلن يتمناهُ عدُوٌ لعدوّه إشْفاقاً عليْه ، وإنى عليه لصابرة ، وبقضاء ربى راضِيَة ، وله شاكرة.

فقال التاجر : ما أحسنَ نطقَك ! وأجملَ صبرَك ! وأعظَم شكرك !

فقال البدوىّ : لقد أفسدتها علىّ بمديحك هذا ، فإنّها من سِفْلَةِ الناسِ ورِعاعهم ، وليستْ لها عنْدِى كرامة .

فأدركَ التاجرُ أن البدوِىّ مُلتَاثُ العقل ضعيفه ، ولا يعرفُ ضُرَّه من نفعِه . وقال : سأشتريها على عَيْبِها هذا .

فقال : كم تدفع ثمناً لها ؟

فقال : مائتى دينار .

فقال : اخرجْ إلى سبيلك ، فلو أعطيتنى مائتى دينارٍ ثمناً للعباءةِ البالية التى عليْها ما رضيت ؛ وحقِّ « طرطورى » إن لم تذهبْ لأضربنّكَ بسوطى هذا ؛ فزاد هذا نفس التاجر يقيناً بضعف عقله بقدرِ ما ضَخُم جسْمُه ، وأسَرَّ فى نفسِه أنه لا بدَّ أن يشتريَهَا مهما يبلغ ثمنها ، وقال : لا تعجلْ بالغضب وارجُ الخير ، كم لها من الثياب عندك ؟

فقال : كثير عليها هذه العباءة البالية .

فقال التاجر : أوَدّ أن تكشِفَ لى عن وجْهها

فقال : دُونَكَهَا ، فانظُرْ ما شئتَ فيها ، ولكَ أن تنزعَ عنها ثيابَها وتراها كيومَ وَلدتها أمّها .

فقال التاجر : معاذ الله أن أَنْظُرَ إلا وَجْهَها ! !

وتقدَّم التاجِر إليها سائلاً ، وكانت قد كشفَت له عنْ وَجْهِها ، لأنها تودُّ أَلَّا يتركها : ما اسمك ؟

فقالت : تسألني عن اسمي القديم أو الجديد ؟

فقال : أوَلَكِ اسمان ؟ !

قالت : اسمي القديم نزهة الزمان ، واسمي الجديد غُصَّة الزمان .

فقال البدويّ : تقولين غصة الزمان ، كَيْ يتشاءم منك التجار ، فَيُعْرِضوا عن شرائك ؟ ! وضربها بسَوْطٍ في يدِه ضربة قاسية ، فبكتْ على أثرها ، وحركَتْ في نفسِ التاجِر الرحمةَ بها ، والعطفَ عليها ؛ ثم أشارت إلى التاجِر أنْ نَجِّني من هذا البدويّ لينجيَكَ الله من كل شرّ في الدنيا والآخرة ، فالتفت التاجرُ إلى البدويّ وقال : هذه جاريةٌ مثارُ أَلَمٍ وتَعبٍ ونِقْمة ، وإذا اشتريتُها فلن أدعَها عندي ليلة واحدة ، فبعنيها بخمسمائة دينار .

فقال البدويّ : لا ، إنها أكلت عندي أقراصاً من الشعير ثمنها سبعمائة دينار .

فقال التاجر : لئن اجتمع أهلك على أن يأكلوا شعيرًا مدة حياتهم فلنْ يأكلوا بسبعمائة دينار ، فبعنيها بما أقترحُه عليكَ ، وإلَّا أخبرتُ

وَالِىَ دمشق فأَخذها منك قهرًا دونَ أن تُفيد شيئًا .

فقال البدوىّ : وبكم تشتريها ؟

قال : بألفِ دينار .

فقال : بعتُكَها بألفِ دينار ، فخذها وطهِّرْ بيتى منها .

فنقده الثمن ، وصحبته إلى منزله .

أما البدوىّ فقد سافر إلى بيتِ المقدس طامِعًا فى أن يُحضِر أَخاها إلى دمشق ليبيعَه كما باعها ، ولكنه خابَ ظنّه وتقديره ، إذ لم يجِدْهُ هناك .

أَخذ التاجر نزهة الزمان إلى منزله ، فكساها فاخِر الثياب ، وزَيَّنها بثمين الحُلى ، بعد أنْ نَظَّفتْ بالاستحمام جِسْمَها ، ثم سأَلها عما تعرفه من العلوم ، فقالت : حفظتُ القرآن الكريم ، وثَقِفْتُ العلوم الدينية والرياضية والفلكية والطبّ والأدب .

فقال : أَوَدّ أن أَذهبَ بكِ إلى وَالِى دمشق شركانَ — وكانت لا تعرف أنه أخاها — فإذا رُقْتِ فى نظره ، ورغبَ فيك — فاصدقيه الثمن الذى اشتريتك به ، واطلبى منه أن يكتب إلى الملك عمر النعمان فى بغداد يرجو منه إعفائى من الإتاوَةِ على تجارتى أينما حللتُ .

فلما سمِعتْ اسمَ أَبيها ومدينته بكتْ فى حرارةٍ مؤثرة ، فقال : أَلكِ حبيبٌ فى بغداد ؟ ! إنى أعرفُ تجارَها ، وأَعيانها ، ووجهاءها ؛ وفى استطاعتى أن أذهبَ بكِ إلى مَن تشائين فيها .

فقالت : لا أعرفُ فى بغدادَ تجاراً ، ولا أَعياناً ، ولا وجهاء ؛ ولكنى

أعرفُ الملكَ عمر النعمان . فقال : وكيف كان ذلك ؟ !

فقالتْ : نُشِّئتُ في بيته ، ورُبِّيتُ مع ابنته ، ونَعِمتُ بعطفِه ورعايته ، ولكن الدّهرَ ما أكثرَ مِحَنه وأعظَم شِقْوتَه ! ! وإن أردتَ أنْ أكتبَ إليه رسالةً تجدُ بها عندَه ما تشاء فعلتُ ، فأحضرَ لها دواةً وقرطاسًا وكتبتْ تقول :

« من الغريبة عن أَهلِها ووطنها نزهة الزمان ، إلى مَنْ ترجو عنده النجاةَ من بؤسِ الأيام : سلامُ الله عليكَ ورحمته ، وشوقٌ إلى لقائِك ممن ابتلاكَ الدهرُ بفرقتِه ، ومَنْ هي حَقِيقَةٌ أن ترى وجهَك الكريمَ بعونتك العاجلة » .

نزهة الزمان

ولما ناولته الكتابَ وقرأهُ كَبُرَتْ في نظرِه ، وعُنِيَ بها عنايةً فائقــة ، فأدخلَها الحمام لتنفضَ عنها غبارَ الأيام ، وألبَسها حُلةً تركية مزركشة بالذهب والدُّرر ، ووضعَ في أذنيها قُرطًا من اللؤلؤ ، وفي رقبتها قلادة من الدر والجوهر ، وجعلَها بما أسبغَ عليْها من فضلٍ ونعمةٍ في خَلْقٍ جَديد ، ثم ذهبَ بها إلى شركان والى دمشق ، فاستأذن وحَيّا ، وقالَ : جئتُكَ بجاريةٍ ما رأيتُ مثلَها جمالًا وعلمًا ، ورجاحةَ عقلٍ ، وبلاغةَ مَنطِق ، ونَبالَةَ خُلُق ؛ وقد ضَنِنتُ بهـا على غيرِك ، وحضرتُ بها إليك ، فقال :

أرنيها حتى أجدَ فيها صدْق ما تقول .

فلمّا رآها تجاوبَتْ أُخُوَّتُهما وهُما لا يَعلَمان ، ووصلَ الحنانُ ما بينَهما وهما لا يعرفان ، وعزم شركان أن يشتريَها ليُعْتِقَها ويتزوجَها ؛ فسألهُ عن ثمنها ، فقال : اشتريتها بألفِ دينار ، وعليها كسوةٌ بمائة ألفِ دينار ، وأرجُو أن تُعطيَنى كتاباً يعفينى من دفعِ إتاوةٍ على تجارتى .

فأمر شركانُ بإعطائه الكتابَ وثلاثمائةِ ألف دينار ، وأنْ ينصرف إلى سبيله . ثم أحضَر شركانُ القضاةَ وأشهدهُمْ على نفسِه أنه أَعتقَها ، وأبرمَ عقدَ زواجِهِ بها ؛ ثم أمر القضاة أن يستمعُوا لعلمها ، فأرخى ستارة بينَهم وبينها ، وقال : إن التاجر أخبرنا أنكِ على علم ومعرفة ، فأسمعينا شيئاً مما تعرفين ، فقالت :

لا يصلحُ الناس فوضَى لا سلطانَ فيهم ، ولا صلاحَ للسلطان إلا إذا أُسِّسَ بنيانه على تقوَى من الله ، واستمساكٍ بشريعته ، وكلُّ مُلْكٍ يقوم على عبادةِ الهوَى فمآله إلى البوار ، والأخذُ بالعدلِ عصمةٌ وتعمير ، واستمراءِ الظلمِ نقمةٌ وتدمير ، وقال بعض الحكماء : لا تُوَسِّعَنَّ على جنودك فيستغنوا عنك ، ولا تضيِّقْ عليهم فيضجروا منك ، وأعطِهم عطاءً قَصْدًا .

وقيل : لا مالَ كالعقل ، ولا عقلَ كالتدبير الحازم ، ولا حزم كالتقوى ، ولا قُرْبَةَ كحسن الخلق ، ولا ميراث كالأدب ، ولا فائدة كالتوفيق ، ولا تجارةَ كالعمل الصالح ، ولا ربحَ كثواب الله ، ولا وَرَعَ كالوقوف عند حدود السنة ، ولا إيمانَ كالحياء ، ولا حسب

كالتواضع ، ولا شرفَ كالعـــلم .

وقيل : النساء ثلاثٌ : امرأةٌ مسلمةٌ تقيةٌ تَعين بعلَها على الدهر ، ولا تُعين الدهرَ على بعلها ؛ وامرأةٌ تزادُ للوَلدِ لا غيرُ ، وامرأةٌ يجعلُها الله غلاًّ في عنقِ من يشاء .

والرجالُ ثلاثةٌ : عاقل يتورَّطُ ، ويستطيع الخلاصَ من ورطتِه ؛ وأعقلُ منهُ لا يتورطُ أبداً ، وجاهلٌ حائر لا يدرى رُشْدًا ، ولا يطيع مرشدا .

وحضرت الوفاةُ عمرَ بن عبد العزيز فقال له مَسلمة : كيف تترك أولادكَ فقراء ؟ ! فلو أعطيتَهم من بيتِ المال ما يُغنيهم ؟ ! ! فقال : إن أولادى ما بين رجلين : رجلٌ أطاعَ اللهَ فاللهُ يصلحُ شأنَه ، ورجلٌ عاصٍ فما كان لِي أن أُعينَه على معصيته .

وروى زيد بن أسلَم عن أبيه أنه قال : خرجتُ أنا وعُمرُ بن الخطاب ذات ليلة حتى أشرفنا على نارٍ مُضْرَمة ، فقال : يا زيدُ ؛ أَحسبُ أَصحابَ هذه النار قد أضرَّ بهم البرْدُ ، فانطلقْ بنا إليهم ، فشينا حتى أَتيْنا إليهم ، فإذا امرأةٌ توقد نارًا تحت قدرٍ ، ومعها صبيانٌ يتضاَغَوْن ، فقال عُمر : السلام عليكم أصحاب هذا الضوء ، ما بالُ هؤلاء الصبية ؟ ! فقالت : يتضاغَوْنَ من الجُوعِ ، وإن الله ليسأل عُمرَ بنَ الخطابِ عنهم يومَ القيامة ، فقال : وما يُدْرى عمرَ بحالهم ؟ ! فقالت : كيفَ يتولّى أمورَ الناس ويَغْفُلُ عنهم ؟ ! فالتفت إلىّ قائلا : انطلِق بنا ؛ فجعلْنا نُهَرْوِلُ

حتى أتينا دار الصرف ، فأخرج عِدْلا فيه دقيق ، وإناءً به شحم ، وقال : حَمِّلْنى هذا ؛ فقلتُ : أحمله عنكَ يا أمير المؤمنين ؛ فقال : هل تحملُ عنّى وزْرِى يوم القيامة ؟ فحمّلتُه إياه ، وانطلقنا نهرولُ حتى ألقيناه عند المرأة ، وأخذَ يُنْضِجُ الطعامَ ، وينفخُ فى النار ، وإنَّ دخانَها ليخرجُ من خلال لحيتِهِ ، ولما نضِجَ قال لها : أطعميهم وأنا أُبْرِدُ لهم ؛ وما زالوا كذلكَ حتى شبعوا ثم نامُوا ؛ وانصرف عنهم رضِيَّ النفس ، تاركاً بقيةَ الطعام عنـدهم .

فقال القضاة : يكفى هذا ، فقد أبانتْ بما سمعناه عما يكنّه صدرها من علم ومعرفة .

أمر شركانُ بذبح الذبائح ، وبَسْط الموائد للوافدين من طبقاتِ الشعب يهنئُون ، وقامت الأفراحُ فى كل مكان ، وتزوج نزهة الزمان ، ثم أرسلَ إلى أبيه كتاباً ينبئه أمرَ هذه الجارية ، فغاب البريدُ شهرًا ، ثم رجعَ ومعه كتابٌ من أبيه يخبره أنه فى حزنٍ أليم لغيابِ أختِه وأخيه ، وقصَّ فيه قصةَ غيبتهما ، وأنهما لا يزالان غائبيْنَ لا يعرف لهما مكاناً ، ولا يحيطُ بأمرِهما خُبْرا ؛ وأمرَه فيه أن يُعْنَى بالبحثِ عنهما فى مقاطَعتِه وما جاورها ؛ فحزنَ شركان لحزنِ أبيه ، ولكنّه فرِحَ لفقدِ أخَويْه ، سرورًا بالملكِ الذى يرثُه من غيرِ أن يقاسمه أو ينازعَه فيه أحدٌ من إخوته .

ولما ولدت زوجتُه نزهـة الزمان بنتاً أحضرَتْه إليها فى سابعِ يومٍ من حياةِ ابنتها ليُسَمِّيَها ، فدخلَ عليها ووجدَ فى عنق ابنته وهو يقبّلها خرزةً

من الخرزات الثلاث ، فاضطربَ ، وفزِعَ وتحيّر ، ثم قال : من أينَ جاءتكِ هذه الخرزة يا جارية ؟!

فقالت : لم تنادينى الساعة يا جارية ؟! لتعلمْ أنّى ملكة بنت ملكٍ ، أنا نزهة الزمان بنت ملكِ بغداد عمر النعمان .

فقال فى ذُهولٍ وخشيةٍ .

أَنتِ ابنة مَلك بغداد عمرَ النعمان ؟ ! !

فقالت : نعمْ .

فقال : ولكنى اشتريتُك من التاجرِ وأَعتقتُك وتزوجتك .

فأخذت تحكى له ما جرى لها ولأَخيها ضوء المكان ، حتى كانت عندَه ، وولدت له بنتَه .

فقال : نادِماً أَسِفاً : لقد وقعناَ فى خَطِيئة كبيرة ، على غير علمٍ منا ، ولا يَدَ لنا فيها ، فأنا شركان بن عمر النعمان ، وأَنتِ أُختى لأَبى .

فاستغفرت الله كثيرًا ، وقالت : وما العَملُ الآن ؟!

فقال : نُسمّى تلك البنت « قَضَى فكانَ » ثم أزوجك بحاجبٍ من حجابى ، وتربّى البنتُ مَعكِ فى بيته ، ويكون الأمرُ بين الناسِ أنى طلقتك ، وزوجتُك أحدَ حُجابى .

فقالت : : لا بأسَ فى ذلك ؛ ونفَّذا ما اتفقا عليه ؛ كل ذلك جرَى وأخوها مع الوقادِ فى دمشق .

ثم جاء شركانَ كتابٌ من أبيه يأمره بإرسال الخراج ، والجارية التى

اشتراها وتزوجَها ، لتناظِرَ الجوارىَ الخمسَ الموفدات من الروم مع عجوزٍ من الصالحات القانتات ، وقال له : سأشترى هؤلاء الجوارىَ الخمس بخراج دمشق ، وهو قليل بجانب ما اتصفْنَ به من جمالٍ وعلمٍ وحكمة ؛ فأحضرَ نزهة الزمان ، وأقرأها كتاب أبيه ليقف على رأيها فيه ، فقالت :

أُسافر ومعِى زوجى .

فرضىَ بذلك ، واستبقَى ابنته « قَضَى فكان » ومعها الخرزة ، ووكلَ أمرَها إلى المراضع والمربيات والخدم ، وبينما ركبُ الخراج سائرٌ « إذ رآه ضوءُ المكان والوقّاد ، فأشار على الوقّاد أن يسافرَ مع الركب إلى بغداد .

فقال : وأنا معك حيثما تذهب ، فلن أُفارقَك حتى تستريح وتطمئن وتنعَم .

واندمجا فى ركب الخراج الذى تصحبه نزهة الزمان .

ولما وصل الركبُ ديارَ بنى بكر أقاموا فيها للراحة ، فهبت عليهم نسائم بغدادَ ، وتحرك الشوقُ فى فؤاد ضوء المكان ، فجعل يتغنى بالأشعار ليلا فى ضوء القمر ، وكان قريباً من خيمة نزهة الزمان زوج الحاجب رئيس الركب وأميره ؛ فلما سمعت نزهة الزمان شعرَه ثار فى صدرها كامنُ الحُزنِ على أخيها ، فأمرت كبير الخدم أن يأتيها بمن كان يتغنى بالشعر ، فقال : لا أعرفه ، وجميع من فى الركب نائم .

فقالت : من تجده مستيقظاً فهو الذى كان يتغنَّى .

فذهب كبير الخدم باحثا ، فلم يجد إلا الوقاد مستيقظاً ؛ فقال :

أأنت الذى كنت تتغنى بالشعر الآن ؟ !

فأنكر .

فقال : دُلّني على من كان يتغنى ؛ نخشى على ضوء المكان أن يكون من وراء ذلك أذى لهُ فأنكره أيضاً وقال :

لا أَعرفُ أحدًا هنا كان يقول شعرًا ، وربما كان رجلا عابرًا وولّى فذهب إلى سيدته وأخبرها .

ثم أثار ضوء القمر في صدره الْحنينَ مرة أخرى فأخذ يتغنى ، فنادت نزهة الزمان الخادم وأمرته أن يحضر لها من كان مستيقظاً ، ولما ذهب وجد الوقاد قاعدًا مكشوف الرأس ، فأمره أن يذهب معه إلى سيدته ، نخاف أن يكون قولُ الشعرِ قد أقلقها ، وتريد أن توقع الأذى بمن تَغَنّى به ، فجعل يتوسلُ إليه أن يتركه ، فعطف عليه وخلّاه ، ولكنه اختبأ حتى يرى هو نفسُه من يقول الشعر ويختفى ، فسمع الوقادَ يقول لضوء المكان : ألم أحذرْكَ عاقبة التغنى بالشعرِ فى هذا السكون الشامل، فقال ضوء المكان :

دعنى أُجِبْ داعِيَ شوقى ، فإنى لا يهمنى شىء مهما يكن خطرُه .

فعرف الخادم أن ضوء المكان هو الذى كان يتغنى بالشعر فى المرة الأولى وفى المرة الثانية — وكانت قد وصَّتْه أن يأتى به برفقٍ ولين ، فذهب إليه وقال : السلام عليكم .

فرد عليه السلام ، ثم طلب إليه أن يذهب معه إلى سيدته ، فقال : ولماذا أذهب إليها وأنا لا أعرفُها وهى لا تعرفنى ؟ ! وكيف أطاوعك

وأذهبُ معك إلى سيدة فى خَيْمتها وفى هدوء ذلك الليل ؟ ! اذهبْ إلى شأنِك فلستُ ذاهباً معك .

فجعل الخادم يروضُه ويستعطفه حتى رضيَ وقام معه إليها ، ثم دخل على سيدته وأخبرها أنه أحضَر من كانتْ تطلبُه ، فقالت : اسأله عن اسمه وبلده وحاله ، فلما سأله الخادم أجاب :

إن اسمى قد مُحِى ، وجسمى قد هُزِل وبَلِى ولى حكاية كلها عجب .

فأمرت الخادم أن يسأله : هل فارقَ حبيباً له كأمه وأبيه ؟

فأجاب قائلا : فارقت الأحبة وأعزُّهم عندى أختى نزهة الزمان التى فرق الدهر بينى وبينها ، ولا أعرف لها مستقرًّا ولا مصيرًا .

فلما سمعت منه ذلك أزاحت الستارةَ التى بينها وبينَه ، وحدقت فيه النظر ، فعرفته ، وقال :

أهلا بأخى ضوء المكان

فنظر إليها نظرة كاشفة وقال :

نزهة الزمان ! ! نزهة الزمان وجعل يردد هـذا الاسم وهما متعانقان ، وصوته يختفى شيئاً فشيئاً حتى كانا فى غيبوبة من هذا اللقاء المفاجئ .

ولما أفاقا من غشيتهما ضَمَّتْهما خَلْوةٌ فى خيمتها ، وخاضا فى سَرْدِ ما جرى لهما ؛ ثم نادتْ نزهة الزمانِ خادمَها وأعطته كيساً من النقود مكافأة له ، إذ كان سبباً فى لقائها بأخيها ، وأمرته أن يُحْضر إليها الحاجبَ زوجَها ، ولما حضر عَرّفته بأخيها ، ثم جَلسَ وقصَّت عليه قصتهما ، وقالت

له : لستَ الآن زوجَ جارية ، ولكنكَ زوج نزهة الزمان ابنةِ عمرَ النعمان ، ملك بغداد ، وأختِ شركانَ والى دمشق ؛ وهذا أخِى ضوء المكان .

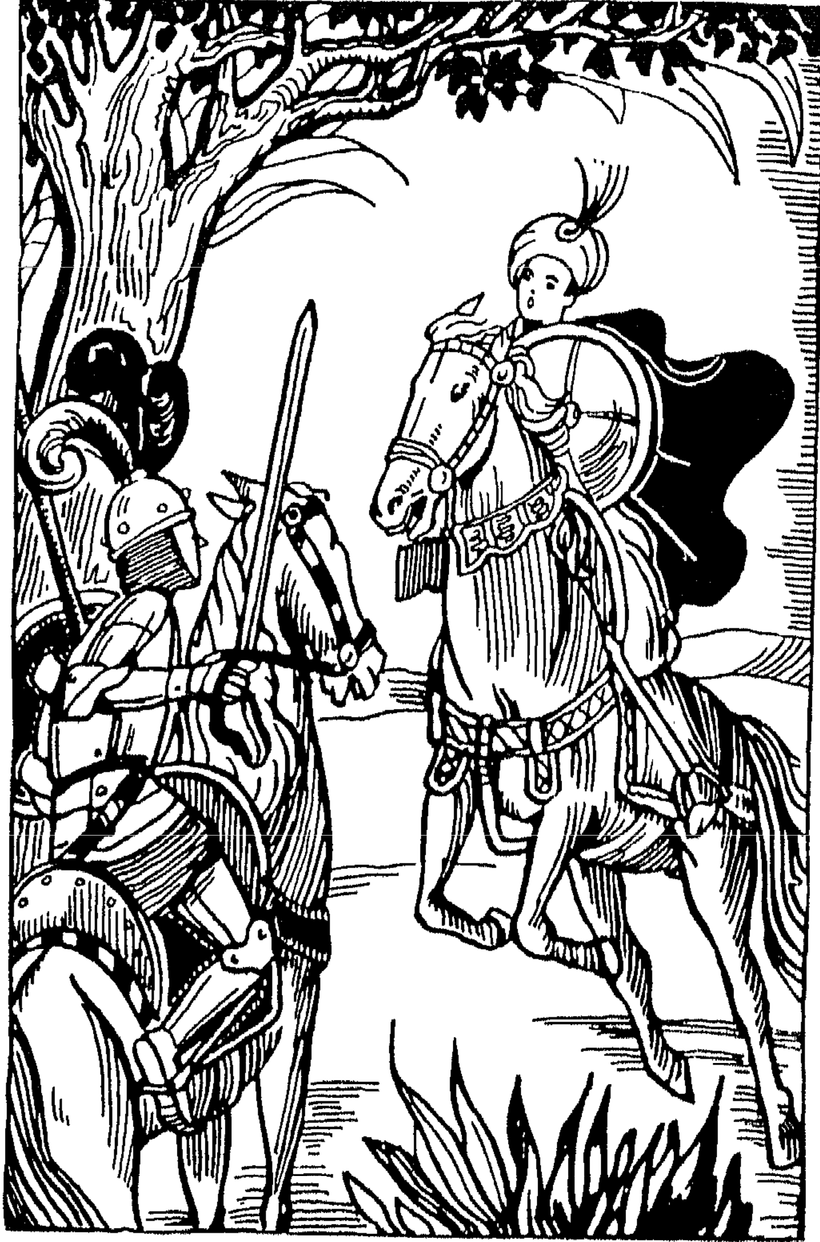
ففرحَ بهذا الحظ العظيم .

ثم استأذنت زوجَها أن تختلِيَ بأخيها حتى يمتلئَ صدرها بالحديث معه ، والجلوسِ إليه ، فأذنَ لهما وتركهما : وكلفتْه أن يكرمَ الوقادَ ؛ ويحتفى به ، جزاء ما قدّم لأخيها من كرمٍ ووفاء ؛ فصدعَ بأمرها ، وأرسل الخدم يبحثُون عنه ، فوجدوه يتهيأ للسفرِ هرَبًا من هذا الركبِ ، وهو فى أشد الأسف على ضوء المكان ، ويقول فى نفسه :

لقد نصحتُ له أن يكفَّ عن التغنى بالشعرِ فلم يستمِعْ لنصحِى ، والحمد لله الذى وفّقنِى لخدمتِه ، ولم يكن أذاه على يَدى ؛ فلما رأى الخدم مِن حوله يأمرونه بالبقاء حتى يطلبَه أميرُ الركبِ ظنّ أن ضوء المكان ذكرَ اسمه ، وأشركه معه فى فِعلِه ؛ فقال : ومالِى وهذا الذى تدعوننى إليه .

فقالوا : ألستَ شريك هذا الذى أقلقَ سيدتنا بشعْره ؟؟

فيقول : والله ما قلتُ شعرا ، ولا رفعت صوتا ، ولكنهم مع ذلك يتألفُونه ، ويحضرون إليه فاخرَ الطعام ، ويأكلونَ معه وَالوقادُ فى حَيْرةٍ من أمرِه ، لايدرِى: أشرٌّ أريدَ به أَمْ أراد به ربّه خيرا؟ ! !



حاجب الأمير شركان يتحدث مع قائد جيش عمر النعمان

(٥)

واستأنف الركب سيره حتى وصلوا مكاناً بينه وبينَ بغداد مسيرةُ ثلاثة أيام ، فحطوا رحالهم فيه وباتوا ، وبينما هم يتأهبون للسفر صباحا رأَوْا غَبَرَة جيشٍ قادم ، فقال الحاجب : امكثُوا فى مكانكم حتى آتيكم بنبأ هذا الجيشِ القادم،وذهب إليه فى بعضٍ من رجاله،فلما قرُبُوا منه أسرعتْ إلى لقائه فرقةٌ من فرقِ الجيش ، وسأله زَعيمها : من أَنتَ ؟ ! وأَينَ تذهب ؟

فقال : أنا حاجب الأمير شركان ، أتيتُ بخراج دمشق إلى عمر النعمان ، فأَخذُوه ورجالَه إلى الوزير دندان وأنبئوه خبرهم ، فأَبْدَى الوزيرُ أَسفَه ، وقال :

إن عمر النعمان قد مات ، واختلَف الناسُ من بعده : أَيولون الملك ابنَه شركان ، أم يولونه ابنَه ضوء المكان ؟ ! ! ولكن ضوء المكان وأخته نزهة الزمان خرجا إلى الحجاز منذ خمس سنوات ولم يرجعا حتى الآن ، واتفق الناسُ أخيراً على أَن يَرضَوْا بما يحكُمُ به القضاة ، ونحن ذاهبون إلى شركان لإحضاره ، ليتولى الملك بعد أَبيه إذا ما رأَى القضاة ذلك .

فقال الحاجب : لقد أراحكم الله ، إن معى فى الركب ضوءَ المكان ، وأخته نزهة الزمان ، وقصّ عليهم قصتَهما ؛ ففرحوا ، واختلط الركب والجيش ، ورجعوا جميعهم إلى بغداد .

ولما كانوا على مسيرة يومٍ منها أرسل الوزيرُ دندان رجاله إلى المدينة ، وبقِىَ هو وأولو الرأى من رجاله وركبُ الخراج ، وكانوا قد قرروا تولية

ضوء المكان خلفاً لأبيه ، وضربوا خيامهم ابتغاء المقام فيها والراحة حيناً ، ثم استأذن الوزير دندانُ أن يدخل على ضوء المكان وأخته ، فأذن له ، فلما جلسَ بين أيديهما أخبرهما بموت أبيهما ، وأن كبراء الدولة وأولى الرأى فيها ولوا ضوء المكان الملْكَ خلفاً لأبيه ، فأسفا على أبيهما وحزنا حزناً بليغاً ، وسألا عن سبب موته ؛ فقال الوزير :

ليس هذا وقت الكلام ، ولكن تقبلْ ولايةَ الملكِ أولا حتى لا يتولاه غيرك ، فقبل ضوء المكان ولاية الملك على أن يبقى أخوه شركانُ والياً على دمشق حتى يحسِمَ بذلك ماعسى أن يكون بينهما من خلاف أو نزاع ، ثم أمر ضوء المكان أن يحتجبَ ثلاثة أيام ليعرف فيها من الوزير دندانَ سببَ قتل أبيه .

فلما اجتمع به وسأله قال :

جاء أبوك من الصيد والقنص فى يوم من الأيام ، فعلم أنكما خرجتما إلى أرض الحجاز ، فحزن حزناً شديداً وخشى عليكما من شر الأيام ، وانتظر عودتكما فلم تعودا ، فجعل يبحث عنكما من غير جدوى حتى مضت سنة كاملة وهو فى غم عظيم لفقدكما . وفى يوم من الأيام قدمت عليه عجوز ومعها خمس جوار أبكار ، على غاية من الجمال ، وعلى علم بالأدب والعلوم والحكمة واستأذنت على أبيك فأذن لها ؛ فأخبرته أن معها خمس جوار أتت بهن إليه ، وهن على جمال بارع ، وعلم ومعرفة وهن على استعداد لامتحانهن فى ذلك ومناظرتهن ، فأحضرهن بين يديه ، فرآهن

فوق ما وصفت ، ثم قال : أحب أن أسمع منكن طرفا من العلم والحكمة والأدب ، فتقدمت الأولى وقالت :

ينبغي لذى الأدب أن يتجنب الفضول ويُجَمِّلَ نفسه بالفضائل ، ويؤدى الفرائض ، ويجتنب الكبائر ؟ فقد قال تعالى : « إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ » وقال : « ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَاحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ . إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ » . وأن يجعلَ حظّهُ من الحياةِ تقوى الله وعبادتَه ؛ فإنما الدنيا سبيلٌ إلى الآخرة . واعلم أنَّ الخير فى الدنيا لرجلين ، رجل أذنب ذُنوباً فهو يتداركها بالتوبة ؛ ورجل يسارعُ فى الخيرات . ولا يتركُ المرء شيئاً من أمر دينه لاستصْلاحِ دنياه إلّا فتح الله عليه ما هو أضَرُّ منه ، ومن كَرُمتْ عليه نفسُه هانت عليه دنياه ؛ ومن أطاعَ الهوى ضَيّع الحقوق ، ومَن أَطاعَ الواشيَ ضيَّعَ الصديق ، ومن ظن بك خيرًا فصدِّق ظنه فيك ؛ ومن لم يحذر الحَيْف لم يأمن السيف ؛ وشتان بين عملين : عمل تذهبُ لذتُه وتبقى تبعتُه ، وعمل تذهب مئونته ويبقى أجرُه ، ومن بالغ فى الخصومة فقد أثِم .

وينبغى للقاضى أن يجعل الناس فى منزلة واحدة حتى لا يطمع شريف فى الجور ، ولا ييئس ضعيف من العدل ؛ والبينة على من ادعى واليمين على من أنكر ؛ والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً ، أو حرَّم حلالا ؛ وما شَكلت فيه اليومَ فراجع فيه عقلك حتى ترجعَ إلى الحق ، فإن الرجوع إلى الحق خيرٌ من التمادى فى الباطل ، ومن خلصتْ

نيَّتُه ، وأصلح ما بينَه وبينَ نَفْسِهِ، كفاه الله ما بينَه وبين الناس ، وطوبى لمن أنفق الفضلْ من ماله ، وأمسَكَ الفضلَ من لسانه ، وعجبت للبخيل يستعجل الفقر الذى منه هرب ، ويفوته الغنى الذى إياه طلب ، فيعيش فى الدنيا عيش الفقراء ، ويحاسب فى الآخرة حساب الأغنياء .

وتقدمت الجارية الثانية فقالت :

يُعْرف المرء فى ثلاثة مواطنَ : الحليم عند الغضَب ، والشجاعُ عند الحرب ، والصديق عند حاجتك إليه ؛ والظالم نادم وإن مَدحهُ الناس ، والمظلومُ سَليم وإن ذمَّه الناس ، وقال الله تعالى : « وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » وقال عليه الصلاة والسلام : إنما الأعمالُ بالنياتِ ، وإنما لـكل امرئٍ ما نَوَى . واعلم أيها الملك أن أعظم ما فى المرء قلبُه ، لأن به زمامَ أمْرِه ، وأن المرءَ إنْ هاج به الطمع أهلـكه ، وإن ملـكهُ الأسَى قتلَه ، وإن عظُمَ عنده الغضَب اشتدَّ به العطَب ، وإنْ فرِحَ بالمال شَغلَهُ عن ذكرِ الله ؛ ولا صلاحَ للمرء إلا بمـا فيه صلاحُ مَعادِه ، وشر الناسِ مَن غلبَت شهوتُه مروءَتَه ، وخير الناس من لم ينْسَ القبرَ والبلَى ، وآثرَ ما يبقَى على ما يفْنَى؛ وقيل لأحدِ العلماء أوصنِي فقال : لا تُشْرِكْ بالله شيئًا ، ولا تُؤْذِ من خَلقِ اللهِ أحدًا .

وتقدمت الجارية الثالثة فقالت : ما مَزَحَ امرؤٌ مَزحةً إلّا مجَّ من عقلِه مَجَّة ، وما أنقصَ النَّومَ لعزائم اليَوم ، وإنَّ أعظَمَ الحسراتِ يومَ القيامة

حَسرةُ رجلٍ كَسَبَ مالًا فى غيرِ طاعة الله فورثهُ رجلٌ فأنفقهُ فى طاعةِ الله فدخلَ به الجنة ودخلَ الأولُ به النار ، ومن أَصلح سريرته أَصلحَ الله علانيته ، ومن عملَ لدينهِ كفاه أَمْر دنياه ، ويوم العدلِ على الظالم أَشدّ من يوم الجوْرِ على المظلوم ، ولكل امرئٍ فى مالِه شريكان الوارث والحوادث ، وما أكثرَ العِبَرَ وأَقل الاعتبار ! !

وتقدمت الثالثة فقالت : لا تصحب المائقَ الأحمق ، فإنه يُزينَّ لك فعلَه ، ويودّ أن تكونَ مِثله ؛ وعليك بالصبر الجميل ، فإنك إن صبرتَ جَرَى عليكَ القدرُ وأنتَ مأجور ، وإنْ جَزِعتَ جرى عليكَ القدرُ وأنتَ مأزور ؛ واعلم بأن الحِلْمَ غطاءٌ ساتر ، والعقل حسام قاطِع ؛ فاستُرْ خللَ خُلُقك بحلْمك ، وقاتلْ هواكَ بعقلِك ؛ وقال صلى الله عليه وسلم : مِنْ حُسْنِ إِسْلام المرءِ تَرْكهُ ما لا يَعْنيه .

وتقدمت الرابعة فقالت : يقول الله تعالى : « إِنَّ ٱلْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ » ويقول : « ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ » وكان علىُّ بن أبى طالب يقول : اللهمَّ إِنِّى أعوذ بكَ أن تُحسِّنَ فى لامعةِ العيون علانيتى ، وتُقبِّح فيما أُبطِنُ لكَ سَريرتى ، محافِظاً على رئاءِ الناسِ مِنْ نَفْسى ، بجميع ما أَنْتَ مُطَّلِعٌ عليه مِنّى ، فأُبْدِى للناسِ حُسنَ ظاهرى ، وأُفْضِى إليك بِسُوءِ عَملِى ، تقرُّباً إلى عبادِك ، وتباعُداً مِنْ مَرْضاتِك . وقال : لا تجعلوا عِلمكُمْ جَهلا ، ويقينكُم شَكّا ، فإذا علمتُمْ فاعملوا ، وإذا تيقّنتم فأَقدمُوا . ولا يكُنْ

بينكم و بين الموعظة حِجابٌ من الغِرَّة .

و تقدمت الخامسة فقالت : قال بعض الصالحين : كل لقمة لا تُقَرِّبُ إلى الله فهى بليّة ؛ وقليل الدنيا يُنسيكَ كثيرَ الآخرة ، وقال رجل لأحد الصالحين : إنى لم أُكلّمْ جارى منذ سنة ؟ فقال له : نسيتَ اللهَ فنسيتَ جارَكَ ، وسأل أحدُهم بعض أصحابه عن حالهم فقالوا : إذا رزقْنا أَكلنا ، و إذا جُعنا صبرنا ، فقال : هكذا تفعل الكلاب ، ولكنّا إذا رزقْنا آثرْنا ، وإذا جُعنا شكرْنا ، وقدْ علمنا أن رزقَنا لم يأكلْه غيرُنا ، فاطمأنتْ نفوسُنا وأنّنا لم نخلقْ من غير علم الله فاستَحْيَيْنا مِنْه .

و تقدمت العجوز بعدهُن قائلة : رحم اللهُ الإمامَ الشافعيَّ فقد كان يقول : ما ناظرتُ أحدًا إلا أردتُ الحق ، وأن يوفقه الله إليه ، وما أُبالى أن يبينَ الحقّ على لسانى أوعلى لسانِه . وقال أحد الصالحين ! إياكَ أن تخونَ مؤمناً ، فإن مَن خانَ مؤمناً فقد خان الله ورسولَه . وفى الأثر : دَعْ ما يَرِيبُك إلى ما لا يَرِيبُك ، واقبَلْ معذرة من اعتذر إليك ، ولا تُبْغِض أحدًا ؛ وصِلْ منْ قَطعك ، واعفُ عمن ظلمك ، وأَحسِنْ كما أحسنَ الله إليكَ ، ولا تَبغِ الفسادَ فى الأرض ، وادفع بالتى هى أحسنُ ، فإذا الذى بينكَ وبينه عداوةٌ كأنه ولىٌّ حميم .

أُعْجِب النعمان بالعجوز وجواريها ، وجعلَ لهنَّ قصرًا خاصاً أَوَيْن إليه ، وأَجرى عليْهنّ فيه رزقاً طَيِّباً ؛ وكان يختلف إليهن ، فيجد العجوز عاكفةً على الصلاة والصيام ، والتهجّد بالليل ، فكانت لها فى نفسِه من

أجل ذلك هيبة ومحبة واطمئنان وثقة ؛ وبعد عشرة أيام فاوضها فى ثمن جواريها ، فقالت : إن ثمن هؤلاء الجوارى فوق ما يتعاملُ به الناس من ذهبٍ وفضةٍ وغيرهما .

فقال : وما ذاكِ أيتها المؤمنة الصالحة ؟

فقالت : من نوع ما أخذه شعيب عليه السلام صداقاً لإحدى ابنتَيْه ، ولن أبيعَهنّ لكَ إلا بصيام شهرٍ كامل : تصومُ نهارَه ، وتقومُ ليله ابتغاءَ وجهِ الله تعالى ومرضاته .

فزادَ فى قلبه حبُّه إياها ، وعظُم يقينُه بإيمانها وتقواها ، وقال : رضيتُ بهذا الثمن الذى أرجُو به المغفرةَ والحُسْنَى .

فقالت : خارَ اللهُ لك فيما رَضيتَ ، وسأمنَحُكَ دَعَواتى ومعونَتى ، فائتنى بكوزٍ من الماء ، فلما حضَر جعلت تقرأ عليه كثيرًا ، ثم غطَّتْه بقطعةٍ من قماش ، وقالت له : إذا كانت الليلة الحاديةَ عَشْرةَ من شهر صومِكَ فأفطر عاَ فى هذا الكوز من الماء ، فإن قلبَك يزداد يقيناً وإيماناً . ويمتلئُ هُدًى ونورًا ؛ أما أنا فسأذهب غدًا لزيارة إخوانى من رجالِ الغيب ، وسأكون عندكَ إن شاء الله بعد العشرة الأولى من صومِك ، واستمر الوزيرُ دندانُ يقصُّ الحادثة على ضوء المكان فقال :

فعلَ أبوكَ ما وصّتْ به العجوز ، ثم جاءته بعد الأيام العشرة الأولَى ومعها قطعةٌ من الحلْوى فى ورقةٍ خضراء ، وبعد أن سلمت على أبيكَ ، ودعتْ له بالخير والبركة — ناولته قطعةَ الحلوى قائلة : إن رجال الغيب

يُقْرِئونكَ السلام ، وقد فرحُوا بكَ فرحاً عظيما ، وأرسلوا معى تلك القطعةَ من الحلْوَى لتُفطر بها آخرَ النهار . فابتهجَ أبوكَ ، وأثْنى عَليها ، ودأَبَ على صوم النهار وقيام الليل عشرين يوماً .

وفى اليوم الحادى والعشرين قالت العجوز له : إنى أخبرتُ رجالَ الغيب بما بينى وبينَك من محبة ، وأنى جعلت ثمن الجوارى اللائى لا ينفكون يدعونَ لهنّ الصيامَ والصلاةَ شهرًا كاملا ، ففرحوا بذلك ، ورغبوا أن أذهبَ بالجوارى إليهم ليباركوهنّ ، ثم أرجع بهن إليك ، وربما كان معهن مفاتيح كنزٍ من كنوز الأرض ، يكونُ بعد تمام صومك عونًا لك فى كثير من شئون مُلكك ، ورفاهية شعبك ، وظهوركَ على أعدائك .

فقال : ومتى تذهبين بهن إلى رجال الغيب .

قالت : فى السابع والعشرين من شهرك الصائم القائم ، على أن أرجع إليك بهن بعد انقضائه ، وأرى أن ترسلَ معهن مَنْ كان عزيزًا عليك من أهلك حتى يباركه رجالُ الغيب معهن .

فقال : ليس أعز لدىّ من جاريةٍ روميّة تدعَى صفية ، رزقت منها بولدين : ذكر وأنثى ، وقد غابا عنى منذ مدة طويلة ، ولا أعلم لهما مستقرًّا ولا مقاماً ، فخذيها مع الجوارى فلعل رجالَ الغيب يدعون لها أن يردَّ الله عليها ولَدَيْها .

فقالت العجوز : حَسَنًا ما رأيت ، وكان ذلك أعظمَ أمنيّةٍ لها ؛ ولما عزمت على السفر بصفية والجوارى قالت لأبيك :

إذا فرغت من صيام شهرك فاختَلِ بنفسك، واشرب ما في هذه الكأس ثم نَمْ ؛ فإنك بعد هذا تكونُ على صلةٍ برجال الغيب الذين يودّونَ تطهيرك لتكونَ منهم وإليهم .

ولما انتهى الشهر دخل الخلوة على علمٍ من أهله ورجال قصره ، وشرب الكأس ونام ، ثم انتظروا خروجَه فلم يخرجْ ، فظنوا تلك الغيبة من إرهاق الصوم ، وتعب القيامِ بالليل ؛ فانتظروا وانتظروا ، ولكنَّ أباكَ لم يخرجْ من خلوته ، فساورنا الشكُّ والقلق ، ووقفنا أمام الخلوة ، ورفعنا أصواتنا بالحديث ، فلم يخرج أيضاً ؛ ففتحنا باب الخلوة ودخلناها ، فوجدناه ميتاً لا حراكَ به ، ووجدنا الكأسَ وغطاءها بجانبه ، ففتشنا هذا الغطاء فألفَيْنا داخله ورقة كُتِبَ فيها : مَنْ أساء إلى النَّاس يُلَقَّى هذا الجزاء ، وقد أساء شركان إلى حردوب ، فأخذ ابنته إبريزة ، وفعل بها ما فعل ، حتى عثر عليها أبوها ، ونقل جثتها إلى قبرها عنده ؛ واعلموا أنه ما قتل الملكَ النعمان إلا العجوزُ ذات الدواهي ، وقد أَخذَتْ معها زوجَتَه صفية وسترسلها إلى والدها إفريدون ملك القسطنطينية ، ولا بد أن يثأرَ لها بغزوكم ، وتخريب بلادكم ، كما ثأرتُ أنا لإبريزةَ بقتل النعمان ملِككم .

قال الوزير دندان :

فعلِمنا أنّ العجوزَ نفذتْ مكيدتَها ، ومضَتْ إلى سبيلها ؛ ثم اختلفَ الناسُ بعد ذلك فيمنْ يتولّى المُلكَ بعد أبيك ، فمنهم من يود أخاكَ شركانَ . فجمعنا جموعنا هذه ، وسرنا إلى أخيك ندعوهُ إلى بغداد من أجل

هذا الأمر ، فعثرنا عليكم فى الطريقِ ؛ وكان بعد ذلك ما تعرفه من الالتفاف حولك ، وتوليتك المُلكَ الذى هو الآن فى مسيس الحاجة إلى عزم وحزم ، ورعاية ويَقظة ، لتُخمد الفتنة ، ويستقر أمر المملكة ؛ وما ماتَ من أَنجبَك ، وتغمد الله برحمته والدك .

فقال ضوء المكان : إن الحزنَ على أبى لعظيم ، وما حُمّلتُه من أمر الملك أعظم؛ والاستسلامُ إلى الأحزان مَتْلَفَةٌ ، وإغفالُ الأمور الخطيرة مضْيَعَة ؛ وينبغى أن أعالجَ ما أُلاقيه الآن فى صَبرٍ وعزم ، وجَلَدٍ وحزم ، وقد رأيتُ منك يا دندانُ خالصَ النَّصيحة ، وصدق التَّدبير ، فأنت لا تزالُ فى منصبك من الوزارة ، فشكره الوزير ودعا له بالتوفيق وَالسعادة .

ثم أصدر أمره أنْ يُقسَّم خراجُ دمشق بين جنوده ، فكان ذلك توثيقاً لروابط الولاء والمحبة بينه وبينَهم ، وأمر أن يرحلوا إلى بغداد ، وهناك جلس على عرش المُلكِ ، وتزاحم عليه المهنئون من كل صَوْب ، واستقامَ الأمرُ ، واطمأن الشعبُ ، وأقبل كلٌّ على عمله فى ظلال الأَمْن والسلام . ثم أمر كاتب سره أن يكتب إلى أخيه شركانَ كتاباً مُفَصَّلًا يشرح فيه جميع ما جَرَى ، ويأمره فيه بالحضور ، ومعه جنودُه المجنَّدة ، ليقاتلوا أعداءهم ، ويغسلُوا بسيوفهم خِزْىَ تلك المكيدة وعارَها ، ويُعْلنوا بجهادهم علانِيَةً أنهم أعظمُ من أن يستعينُوا بمكر العجائز من النساء ، وأشرف من أن يلجُوا بأيةِ حيلةٍ وضيعةٍ لا يلجُ بابَها إلا كلّ عاجزٍ مَهين .

وبعث وزيره دندان بهذا الكتاب إلى أخيهِ شركان ؛ وقال له : الرسول بحَزْمِه وحكمتِه ، فتلطَّفْ فى لقاء أخى ، وعرض الكتاب عليه ، وبلغه أن

أخاك ضوء المكان يعرضُ عليك مُلكَ أبيك فى بغداد ، فإن أردته فهو لكَ ويُرضيه أن يكونَ نائباً عنكَ فى دمشقَ على أن يكون يمينَك وساعدك .

فقال الوزير : أبْشِر واطمئن . فستكون سفارةً موفقةً ناجحة . وسلم عليه ورَحل .

ولم ينس ضوء المكان الوقاد ، فوصَّى به رجاله أن يكرموه ، ويغدقوا عليه الخير والنعمة . وقامَ بشئون ملكِه خير قيام ، وأعجبته جارية من الجوارى فدخل بها ، وحملت منه .

وبعد مدة جاء الوزير دندان من عند أخيه يحمل إليه بشرى الوفاق والوئام ، وأنه قادم إليه فى عسكره ، ليكونَ تحت طاعتِه ، وأشار عليه أن يخرجَ للقائه فى خواص رجالِه ، حفاوة به وتكريماً ، وتمكيناً للألفة بينهما ، فاطمأن الملكُ إلى تلك المشورة ، وضرب خيامه فى انتظار أخيه بظاهر المدينة .

٦

وفى صبيحة يوم أقبل شركانُ وجُنده ، ولما التقى بأخيه تَعانقا عِناق أُخُوَّةٍ صادقةٍ ، وحنانٍ عظيم : وسار جميعهم إلى بغداد ، فذهبَ الأخوان وكبراء الدولة إلى قصر الملك ، وذهبَ جند شركانَ إلى ساحة الجند العامة من المدينة ، حيث يقيمون ما شاء الملكُ فى أمن وسَعة ، حتى يَحينَ وقت الغزو والجهاد ، بعد أن تتم التعبئَة والاستعداد .

واستُقْبِلَ شركان فى قصر الملكِ استقبالا كريمًا ، كان من أكبر العوامل فى صفاء سريرته ، والإخلاص لأخيه ، وأمر ضوء المكان أن يكتبَ إلى القبائل أن تمده بجنودها وفرسانها ، حتى يُعِدَّ جيشًا جرارًا يقضى به على أعدائه ، ويثأرَ لأبيه الذى ذهبَ ضحية مكر العجوز وغدرها .

وأرادَ شركان من أخيه أن يَحكىَ له تاريخ غيبته ، فقص عليه ما جرى له ولأخته فى خلوةٍ صافيةٍ آمنة ، وطلبَ شركانُ أختَه نزهةَ الزمان التى علم من قصةِ أخيه صدقها ، فسلّمت عليه ، وسألته عن بنتها « قضى فكان » فقال : إنها فى سلامة من الله وعافية ، ثم سأل أخاه : هل كافأتَ الوقاد ؟ ! فقال : هو الآن فى عَيْشٍ هنِيّ ، وسأكافئه بعد عودتنا من غزو الأعداء .

أذّنَ فى الجيش مؤذّن الرحيل ، فضرب فى الأرض كأنه لكثرته وتزاحمه جبلٌ ممدود يمشى مَشْىَ السحاب ، يتوسطه ضوء المكان ، وعن يمينه شركان ، وعن يسارِه صهره الحاجب ؛ وكان الجيش فى كل أسبوع يلبثُ فى المكان الذى يصلُ إليه ثلاثة أيام للراحة .

وكان قد عَلِم حردوبُ ملكُ قيسارية أن المسلمين يجمعونَ جموعَهم لغزوِه وقتاله ، فقام إلى العجوز أُمه ذات الدواهى وقال : لقد كنتِ سبب هذه الفتنةِ الحالقة ، والغزوةِ الماحقة ، ولا أجـدُ سبيلًا للخلاصِ من أَيدى المسلمين هذه المرّة .

فقالت : ما عليكَ مِن بأس ، فاذهب بصفيةَ إلى أَبيها إفريدون ملك

القسطنطينية ، وسلمْهُ إياها ، وقُصّ عليه ما فعلتْه بالنعمان من أَجل ابنتِه ، واطلبْ إليه أن تكونوا يدًا واحدةً أمام جموع المسلمين الغازية ، فإن فرحتَه بابنته ستجعلكَ عزيزًا عندَه ، وإذ ذاك لن يتأخّرَ عن معونتِك بأمواله وجُنده .

وحمل حردوب صفية إلى أبيها إفريدون ، وهيأ لها موكبًا عظيمًا ، وحمل معها الهـــدايا النفيسة ، وسار فى ركب عظيم حتى وصل إلى القسطنطينية .

فلما رأى إفريدونُ ابنتَه فرحَ بها وعظُمَ حردوبُ فى نظره وأَحبّه ، وزاده محبة وإعظامًا فى نفسه أَنْ قتل عمر النعمان من أجل ابنته صَفية ، ثم قال له : إنّى مُعينُك بجنودٍ لا تُحصيهم عَدًّا ، وكما قتلت عُمرَ النعمانَ فى سبيل ابنَتى فلنْ أُبقِيَ فى سبيلكَ مِن جنوده فَرْدًا ، ثم سأله :

وأينَ جيوش المسلمين الآن ؟

فقال : جئتُ إليك وهم يتأهبون ، وعما قليلٍ لَيُصْبِحُنَّ قادمين ؛ وإذا لمْ نكن جميعًا متعاونين فقدِ فَشِلْنا ، وذهبتْ ريحُنا ؛ والأمر لا يحتمِلُ لينًا أو توانِيًا .

فقال إفريدون : لَن تقومَ من مقامِك حتى يكون الجُندُ قد تأهبوا للسفرِ مَعنا إلى بلادِك ، ولن يُصيبَك أذًى ما دُمْنا معك .

أقبلت جيوشُ بغداد وكان عددهم مائةً وعشرين ألفًا ، والتقوا بجيوش حردوبَ وإفريدونَ وقد بلغ عددهم ألف ألف وستمائة ، واستعرتْ نارُ

القتال بين الجيشين ؛ وكان المسلمون يقاتلون ، ونفوسُهم مطمئنة ، ليقينهم بنصر الله وتأييدِه ، فكان الواحد منهم لذلك فى قوةِ عشرةٍ من أعدائه ، وقتلوا منهم فى يوم واحد خمسة وأربعين ألفا ، وقُتِلَ من جيش المسلمين النزرُ اليسير ، وجمعَ الليلُ إفريدون ملك القسطنطينية ، وحردوبَ ملك قيسارية ، وأمَّه العجوزَ ذات الدواهى ، وأمراءَ الجند ، فقال بعضُهم لبعض : لقد أعجبتْنا كثرتُنا فهُزِمنا ، وما كان شرًّا علينا ونارًا تأكلُ جنودَنا إلا شيطانُ المسلمين شركان بن عمر النعمان .

فقال إفريدون :

إذا كان الأمرُ كذلك فلنُقَيِّضْ له فارِسنا لوقا بن شملوط ، فإذا ما قتلَهُ وقتل كثيرًا غيرَه — انفضوا من حولنا ، وفرُّوا مهزومين ، وكان لوقا هــذا بشع الهيئة ، قبيح الطلعة ، لا يدانيه فارس منهم فى رَمْىِ النبال ، وطَعْنِ الرماح ، وضرب السيوف ، والصبر فى النزال ، فسبَقَ لوقا هذا فُرْسانَ الروم إلى الميدان صباحًا ، وكانوا من هَوْلِ ما أصابَهم أمس من المسلمين كأنهم يُساقون إلى الموتِ وهم ينظرون ؛ فنادى منادٍ منهم بلسان عربى مبين :

يا أمَّة محمد ؛ لا يخرجْ لمبارزة فارسنا إلا سيفُكُمْ وفارسُكم شركان صاحبُ دمشقَ .

فما أتم نداءه حتى برز إليه شركانُ كالأسدِ الغاضب على جوادٍ كأنه البرقُ الخاطفُ ؛ فعاجلَه فارسهم لوقا بن شملوطَ بحَرْبةٍ صوَّبها إلى مَقْتلِه ،

فاختطفها شركانُ من الهواء، وهزها بيده هزةً أثارت عجبَ الناظرين، وحركت مخاوف الأعداء فى صدورهم، ثم رمَى بها لوقا، وبينما يختطفها لوقا من الهواء كما اختطفها شركانُ — أسرعَ إليه شركانُ بحربةٍ ثانية أصابت رأسَه فأردَتْه قتيلا؛ ففزعَ الروم وتصايحُوا تَصايُحَ الخوف، وانفلت إليهم جيشُ المسلمين، وأعملوا فيهم سيوفهم ورماحَهم، وروَّوْها من دماء أعدائِهم؛ وانجلت المعركة هذا النهار عن كثيرٍ من قتلى الروم، وهزيمةٍ منكرةٍ لهُم.

وارتقبَ الفريقان يومَهم الثالث لاستئنافِ القتال.

واجتمع بالليل ضوءُ المكان، وأخوه شركان، والحاجبُ، والوزيرُ دندانُ؛ فحمدوا الله الذى أيَّدَهمْ بنصرٍ من عنده، ثم قال شركان للحاجب والوزير دندانَ.

أنتما غدًا تأخذان مائتى فارسٍ، وتَبْعدان بهم عن الميدانِ فرسخا، وتترقبان تقهقرنا أمام جيش الروم إلى الوراء على أننا مهزومون، فإذا ما طمعوا فينا، وتبعونا فانقضُّوا عليهم من خلفِهم؛ فإذا ما رأينا كم تمكنتم منهم — هجمنا عليهم من جانبنا، وأطبقْنا جميعًا عليهم من الأمام والوراء، وسلطنا عليهم سيوفنا ورماحنا تحصدهم حَصدًا، وتأكلهم أكْلاً، حتى نقطع دابرهم. ويولِّى الهاربون أَدبارهم.

وباتوا على هذا الذى اتفقوا عليه.

وكذلك فعل المسلمون بأعدائهم: فهزُموا، وولَّوا الأدبارَ، وغَنِموا

منهم مَغانمَ كثيرة ؛ وجاء الليل ، فرجع كل جيش إلى مُسْتَقره : هذا منتصر مستبشر ، وذلك مهزوم خاسر .

شكا إفريدون هزيمته إلى العجوزِ ذات الدواهي ، وكانت كاهنة ماكرة فاجِرة : قرأت كتب الإسلام ، وحجت بيت الله الحرام ، ولبثَت في بيت المقدسِ سنتين ، لأنها مشغوفة بالاطلاع والمعرفة ، لتكون على بينة من ضروب الكيدِ والحيلة ، فقالت له :

دعْني أمكُر بالمسلمين ، لأعجِّلَ فَناءهم وأُظهِركَ عليهم ، ولْتكونوا طَوْعَ إشارتي في غير بُطء أو تثاقُل .

فقال : أشيري علينا بما تريدين ، فلن نَعصِيَ لك أَمرًا .

اختارت العجوز بعضَ رجال من الجيش ، وألبستهم ملابِس تجارِ المسلمين ، وحمَّلت بغالا صنوفًا من الأقمشة ، وأخذت من الملكِ إفريدونَ كتابًا فيه .

إن هؤلاء الرجال الذين يحملونَ كتابي هذا من تجارِ الشام ، وقد كانوا في ديارنا ، فلا يتعرضْ إليهم أحد بسوء ، لأن التجارَ من عناصرِ العمران في البلاد ، وليسوا من عوامل التخريب والفساد ، ولا أهل حرب وقتال .

ثم تنكرت هي في زي شيخ عابد ، فلبست جُبَّةً من الصوفِ الأبيض الناعم ، ووضعتْ رجليها في قيد لتجعلَ له أثرًا في ساقَيْها ، يدلُّ على أنها في القيدِ من مدة طويلة ، وأمرت أنْ تضربَ بحيث يتركُ الضربُ آثارًا في جسمها ، ثم أمرتهم أن يفكوا قيدها ، ويضعوها في صندوق يحملونه مع

بضاعتهم مارين بجندِ المحاربين وقالت لهم : إذا ما تعرضوا لـكم فأعطوهم البغالَ والبضاعة والصندوق الذى أتا فيه ، واذهبوا إلى ضوء المكان وأخبروه أنكم كنتم فى بلاد الروم ، ولم يمسُّوكم بشر ، بل أكرموكم ، ووصَّوا بكم خيرًا ، وقولوا :

ولقد أعطانا ملـكهم كتابًا يمنع به عنا أيَّ عُدوان من أحد فى أثناء طريقنا ، وهذا هو كتابه ، فكيف يأخُذ جندُ المسلمين الذين هم منا ونحن منهم بضاعتنا وبغالنا؟ فإن قال لـكم : وما ربحتموهُ من بلادِ الروم؟ فقولوا : رَبحنا عِتْقَ شيخ زاهد ، وتخليصَه من سرداب محبوس فيه منذ خمسَ عشرةَ سنة ، يَلْقَى فيهِ ألوانًا من التعذيب وهو يستغيث ولا مغيث .

واتفق أننا حينما عزمنا على الرجوع إلى بلادنا أَنْ بتنا ليـلةَ الرحيل نتحدث حتى أسكتَنا النوم ، فلما أصبحنا وجدنا صورة معلقة فى جدار الحجرة تتحرك ، فلما ذهبنا نحوها لنتبينَ ما يحركُها فجأتنا بقولها : أليس فيكم أيها المسلمون من يعمل عملًا يدخله الجنة ؟ ! فعجبنا وقلنا : كلنا يودُّ ذلك . فقالت : إن الله أنطقنى لـكم لتنقذوا وليًّا من أوليائه ، فإذا قطعتم بالسفر ثلاثة أيام فإنكم واجدون فى سبيلكم دَيْرًا فيه ذلك الولىُّ العابد ، يقاسى تعذيب الـكفار خمس عشرة سنة ، فإذا وصلتم إليه فاحتالوا لدخوله ، وأنقذوه من سردابه الذى حُبِسَ فيه ، ثم اذهبوا به إلى سيف الله الذى سلّهُ الله على الكافرين ، شركانَ بن عمر النعمان ، واتركوه عنده ، فهو يحبُ الصالحين ، وهو الذى كتبَ اللهُ له أن يفتحَ القسطنطينيةَ ، ويهزِمَ

المشركين الفجرة .

قالت العجوز : فإن فعلتم ذلك فاذهبوا إلى سبيلكم ودعوني عنده أدبِّرْ أمرى فى هلاك المسلمين وهزيمتهم .

وكان جيش المسلمين قد تعقب المهزومين ، ونزل جنده بمَرْجٍ فسيح ، كثير الأشجار والمياه للراحة ؛ وما كادوا يقيمون فيه يوماً حتى سمعوا صوت قافلةٍ سائرة ، فحسبَ ضوءُ المكان وأخوه والأمراء أن الجنود قد ضايقوهم وأخذوا ما معهم ؛ وبعد برهة قصيرة حضر إليهم هؤلاء التجار ، وشكوْا إليهم ما فعله الجنود بهم ؛ فقالوا :

نحنُ تجارمسلمون ، لم يُؤْذِنا أحدٌ فى بلاد الروم، وقد أعطانا ملكهم كتاباً يأمر فيه جنده وشعبه ألا يؤذينا أحدٌ فى أنفسنا وأموالنا حتى نصل إلى بلاد الروم سالمين، وهذا هو كتابه المختوم بخاتمه .

فلما قرأه ضوء المكان طمأنهم ، وأخبرهم أنه سيردُّ إليهم فى الحال جميع أموالهم ؛ ثم قال : وهلْ تربحون إذا ذهبتم إلى بلاد الروم للتجارة ؟

فقالوا : لقد ربحنا هذه المرة مالم تربحه بجنودك هذه التى تملأُ البطاح .

فقال : وما ربحتم ؟ فقالوا : لا نتحدث بما ربحنا إلا خِفْيةً وفى خلوة ، فإنا نخشى على أنفسنا من الروم ! إذا بَانَ وذاعَ . فاختلى بهم ضوء المكان وأخوه ، وبَلّغَ التجارُ ما علمتْهُم العجوز ذات الدواهى على وجهه ؛ فقال ضوء المكان :

وأين هذا الزاهد العابدُ الآن ! ؟

فقالوا : فى صندوق من صناديق بضاعتنا .

فأمر بإحضار الصناديق جميعها أمامه ، وقام التجار إلى الصندوق الذى فيه العجوز، فأخرجوها منه على حالها الأليمة ، وعلى أنها شيخ زاهد عابد ، لا يَفْتَر عن عبادة الله وتسبيحه . فبدا على ضوء المكان وأخيه كثير من الحزن والألم ، فقالت العجوز :

لا يَحْزُنكما أمرى ، فقد رضيتُ صابرًا بما كتبه الله علىَّ من الابتلاء والضراء ؛ ومن لم يصبر على البلاء والمِحَن فقد حُرِمَ رضوان الله ، وكنتُ وأنا فى سجنى أَوَدَّ أن أعود إلى بلادى ، لا جزعًا من البأساء ، ولكن حبًّا فى فى أن أَلْقَى منيتى تحت سنابك خيل المجاهدين فى سبيل الله الذين قال الله فيهم : « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ» ، فاقشعرت جلودُهم لقوله ، وظنُّوهُ جوعانَ، فأحضروا له طعامًا ، فقال الشيخ الزاهد « العجوز ذات الدواهى » : إنى صائم .

فقالوا ولكنا نرى الجوع قد اشتد بك، وأنت الآن على سفر، والإفطارُ لك رُخصة فى الفريضة ، ولسنا فى شهر رمضان .

فقال إذا كنتُ قدْ قطعت خمسَ عشرة سنة فى السجن صائمًا ، ولا يجرى علىَّ من الغذاء إلا قليلٌ من الكفاف ، فما ينبغى أن أُفطِرَ وقَدْ خلصنِى ربى من السجن ، وصرف عنى كيد الكفار وتعذيبهم .

فعجبوا لتقواه وإيمانه ، وأعطوا التجارَ بضاعَتَهم ودوابهم ، وخَلَّوْا سبيلهم . أما هذا الشيخ العابد فقد احتفظوا به عندهم .

(٧)

ولما جاء الغروبُ أحضروا له طعاماً ليُفْطِر ، فتناوَلَ منه قليلا ، وشرب الماء ، ثم انفلت إلى المصلَّى ، وانتصبَ قائماً يُصلّى ، وما غفل عن ذكرِه وصلاته حتى لم يبق من الليل إلا أقلُّه .

ودأب على هذه الحال حتى أيقنوا أن هذا الشيخ أوغلَ فى عبادةِ الله ، والزهد فى الدنيا ، وكانوا قد جعلوا له خَيْمة خاصة به ، فذهب إليه ضوء المكان وأخوه والوزير ليجلسوا معه ساعة يغمرُهُمْ فيها ببركته ، ويدعو لهم بالسعادة والمغفرة ، فوجدوه يصلّى ، فانتظروا حتى يفرغ إليهم من صلاته ، فأطال فيها حتى مضى من الليلِ ثلثُه ، ثم التفت إليهم فحياهُم ، وأخبروه أنهم عنده من أولِ الليلِ ، فقال :

ما أحسستُ شيئاً حولى حتى خرجتُ من صلاتى ، لأن مَن وَقفَ بين يدَى الله غَفَلَ عما سواه ، فلا يكاد يسمعُ أحداً أو يراه .

فقالوا : حَدِّثنا عن سبب حَبْسِكَ فى الدَّيْر ، وتعذيبك فيه تلك المدة المَدِيدةَ ، وكيف وكلكَ الله إلى الكفار يعذبونكَ ، وأنتَ على ما نرى من عبادتِه والإيمانِ به ؟ !

فقال : لولا أنكم من أمراءِ المسلمين ما حدثتكم بشىءٍ مما أصابنى ، فإن الشكوى عندى لا تكون إلا لله الذى بَسَطَ الأرضَ ورفَع السماء ؛ ولكنى أَقُصه عليكم للذكرَى ، فإن الذكرى تنفعَ المؤمنين . ثم ابتدأ يقول :

كنت فى القدس عاكفاً على عبادةِ الله ، معرضاً عن زينةِ الدنيا ، لا يُدَنِّسُ قلبى ذرةٌ من عجبٍ أو كبر ؛ وفى ليلة مقمرةٍ خرجت أتريَّض فوجدتنى أَمشى على البحر من حيثُ لا أدرى ، فتحركَ فى قلبى شىءٌ من الإعجاب بنفسى ، فابتلانى الله بالمسيرِ فى الأرض ، أهيم فيها هنا وهناك من غير أن يكون لى طلب معين ، أو وجهة خاصة . فجعلتُ أَجُولُ فى أقطار الروم سنةً كاملة ، وأنا أعبد الله فى كل مكانٍ حللتُ فيه . ولما وصلت إلى دَيْر راهبٍ يقال له يوحنا ، أَقْبلَ علىَّ إقبالَ أُمٍّ على وَحِيدِها جاءها بعد غيابٍ طويل ، وقال :

لقد رأيتُك فأحببْتُك ، لأنى أحببتُ فيكَ إخلاصكَ لله ولدينك ، وجعلتَنِى شديد الرغبة فى زيارة بلادِ الإسلام .

ثم أخذنى من يدى وأَدخلنى مكاناً مظلماً بالدير ظننت أنَّه سيُضيئه ؛ ثم أَغلقَ علىَّ بابه ، وتركنى فيه وَحدى أربعين يوماً ، لأموتَ من الجوع ؛ ولكنَّ الله أطعمنى فيه وسقانى ، ليجرىَ علىَّ قضاؤه من التعذيب والأذى .

وزار الدير بعد ذلك بَطْرك يدعَى دقيانوس ، ومعه عشرةُ غِلْمانٍ ، وبنتٌ له تسمَّى تماثيلَ ، بلغت من الجمالِ والحسن مبلغاً عظيماً ، فسمعتُه يقُص على البطرك خبر حَبسِى ، فأجابه : أظنُّه الآن قد مات ، وأَسرعوا إلى بابِ السِّجن الذى أنا فيه ، وفتحوه . فوجدونى قائماً أُصلى ، فعجبوا أن رأونى لا أزال حيًّا ، وقال يوحنا :

لا بُدَّ أَن يكون هذا الشيخ ساحرًا ماهرًا ، وأَمر غلمانه أَن يوجعونى ضربًا ، فصبرت قائلا فى نفسى :

هذا جزاءُ مَن يَستكبر ويزهو بما أَنعم الله عليه .

ثم أقفلوا عليَّ الباب ، وصاروا يرمُون لى قرصاً من الشعير ، وشربة ماءٍ كل ثلاثة أيام . وكان هذا البطرك يزور هذا الدير كل شهر أَو شهرين ، كما حفظَ أَمواله فيه جرياً على عادة الناس الذين يحفظونَ فى هـذا الدير أَموالَهُم ونفائسَهم ؛ وليتكم تَسْعَوْن لأخذ أَموالهم ونفائسهم هذه لتنفقوها على جنودكم المجاهدين فى سبيل الله ! ! كما تتمتعون برؤية تماثيل التى لم تقع عينٌ على مثلها فى الجمال الذى يزيد إيمان المرء بقدرةِ ربِّه إذا ما نظر إليه ، وكما تسمعون صوت جاريةٍ فى الدير لا يَسْلُوه أَحد ، ولا ينْسَى عذوبتَه ورقته ، وليتكم تنقلونها إلى بلاد الإسلام لتقرأ القرآن الكريم بهذا الصوت الساحر ! !

فقالوا : وكيف نصل إلى هـذا الدير ونحن لا نعرفُه ، ولا نعرف السبيل إليه ؟ !

فقال : سأكونُ رائِدَكم ، ومِفتاحَ خزائن الأموال والنفائس ؛ وسبيلا إلى تماثيلَ والجارية .

ففرحوا واطمأنّوا ؛ ولكن الوزير دندان شكَّ فى قولها هذا ، ولم تقبله نفسه ، وبدت علامات عدم الرضا والارتياح على وجهه . فقال ضوء المكان :

وما يُعوِّقُنا عن الذهاب إلى هذا الدير الآن فى عددٍ ملائم من الفرسان ، وعدة من البغال ، نحملُ عليها تلك الأموال والنفائس ، لنستعين بها على

قتال هذا العدو المبين ، ونقتصَّ منهم لهذا الشيخ التّقى الكريم ؟ !

فقال الشيخ العابد :

وأرى من الخير لكم ألا تُفلِت من أيديكم هذه الفرصة ، ويَحسنُ أن تمهدوا السبيل للبطرك وبنته تماثيلَ أن يحضُرا إلى الدير مُطْمئنيْن ، ويقيما فيه الأيام التى اعتادا أن يقيماها فيه كلما حضرا إليه ، حتى تكون ابنتُه تماثيلُ من نصيبكم .

فقال ضوء المكان : وكيف نمهد له الحضورَ والإقامة ؟

فقالت : إن هو جاء ورأى جنودكم هذه الكثيرة قريبة من الدير خاف ورجَع ، حذرًا مما عسَى أن يتوقع من مكروه ، فإذا بعدت جنودكم عن الدير ، ولم يجد بالقرب منه ما يزعجه — حضر إليه ، وأقام فيه مطمئنًا ؛ وحينئذ يتيسر لكم أن تأخذوا ابنته تماثيل ، فهى لا تصلح إلا أن تكون ملكَ يمينك أو يمين أخيك شركان . فأمر ضوء المكان أن يتولى الحاجبُ أمر الجيش ، وأن يبعد به عن الدير فى طريقه إلى القسطنطينية .

وذهب هو وشركان والوزير دندان فى مائة فارس ، وعدد غير قليل من البغال والصناديق لحمل الأموال والنفائس ، يَقُودُهم إلى الدير ذلك الشيخ العابد ، ووصَّى ضوء المكان الحاجبَ ألا يُعلِم أحدًا من الجيش أنهم ليسوا فيه ؛ وكان التجار — أصحاب الشيخ العابد — قد ردَّ إليهم ضوء المكان أموالهم ، ورحلوا بعد أنْ وصاهم الشيخ العابد بما أراد ، وحملهم رسالة إلى إفريدون يخبره فيها بما فَعل ، وأمره فيها أن يرسل إليه

عشرة آلاف فارس ، يسيرون فى سفح الجبل إلى ما قبل الدير خفية ، وشرح له فيها ما سيقوم به من تدبير وكيد لهلاك المسلمين وقال :

إنى ذاهبٌ بهم إلى الدير ، وسأسامهم صلبانَه ليكسروها ، وآمرهم أن يقتلوا راهبه يوحنا ، حتى يقيموا فى الدير مطمئنين ، ويكونوا طوع أَمرى فيما أقول .

ولما ذهبوا إلى الدير ، وتلقاهم فيه راهبه يوحنا — قال الشيخ العابد : اقتلوا هذا اللئيم اللعين حتى لا يعترض سبيلنا ، ويحول بيننا وبين ما نريد .

فانقض عليه واحد منهم ، وأطار رأسه عن جسده بسيفه .

ثم قال الشيخ : حيا الله الإسلام ورجاله ، وسلمتهم الصلبان فكسروها وأتلفوها ، وسار بهم إلى خزائن الدير ، فألفَوْها غاصة بالأموال والنفائس ، فأخذوا فى نقلها إلى صناديقهم التى أحضروها معهم ، ولما تمَّ لهم ذلك انتظروا تماثيلَ وأباها ثلاثة أيام . ولما لم يحضرا قال شركان :

أخشى أن يكون الجيش فى حاجةٍ إلينا ، وما كان لنا أن نُبطئَ هذا الإبطاء ، وقد انقطعت عنا أَخبارُه ؛ وإن القَلق يُساورنى من أجله .

فقال ضوء المكان : ذلك حَق !! وكفانا ما غنمنا من هذه الأموال ، وينبغى أن نُعجِّلَ بالعودةِ إلى الجيش .

فلم يَعترض الشيخُ العابد حتى لا تُحيطَ به الظنون ، وخرجوا خفية من الدير ومعهم الشيخ العابد حتى وصلوا إلى بابِ الشِّعب ، فألْفَوْا جُنودَ الروم كامِنَةً لهم ، مرتقبةً عودتَهم ؛ فعجبوا أن وجدوا هؤلاء الجنودَ

فى طريقهم ، وقال أَحدُهم : كيف عَرفَ الروم مكاننا حتى ترصدونا فى سبيلنا ؟ !

فقال شركان : ليس هذا وقت السؤال والجدال ، ولكنه وقت الجهاد والنضال ، فشدُّوا عزمكم ، وعَسَى الله أن يجعل من إيماننا وصبرنا قُوةً تعوض قلتنا ، وتنجينا وتقهرُ أعداءنا .

وقال الوزير دندان :

إن بقاءنا فى هـذا المكان الضيق يمكِّن الأعداء منا ، ومن الضرورى لنجاتنا أن نخرجَ فورًا من هذا الشعب قبلَ أن يَسْتوِىَ العدو على رأس الجبل فلا يترك منَّا أحدًا إلا قَتله ، ولا نَسْتطيع أن ندافِع عن أنفسنا .

فقال الشيخ العابد : ألم تبيعوا أنفسكم فى سبيل الله ؟! فقالوا : بَلَى ! !

فقال : ولِمَ هذا الخوفُ الذى دبّ فى نفوسكم ؟ ! لقد لبثت فى سِجْنِى خمسة عشر عاماً كلها ضَنْكٌ وشدة وجوعٌ وغِلظَة ، فاعتقدتُ أنَّه من الله، وما أنكرْتُ منه شيئاً ، وما جادلتُ اللهَ فِيه ، وصبَرْت مُعتمدًا عليه ، فجعل لى مخرجاً من حيث لا أحتسِبُ .

فخجلُوا وثبتوا فى مكانِهم ، وربطوا عزائمهم على الجهاد فى سبيل الله صابرين ، وكان الأعداء قد أحاطوا بهم ، فدارت بين الفريقين رحى القتال الأليم ؛ وكلما اشتدت وطأة القتال على المسلمين زاد ثباتُهم واستبسالهم ، فقتلوا كثيرًا : منهم كبيرُ البطاركة ، وقائدُ الجنود الأكبر ، وكان الشيخ العابد يَبعث فى جند الروم النشاط كلما فترت همتهم ، ويُوحى إليهم مُشيرًا

أن اقتلوا شركان ، ولكنه كان مؤيدًا بحمايةِ الله ونصره ، ففشلت كلُّ محاولةٍ يُرادُ بها قتلُه ، ونصرهم الله بقلتهم على أعدائهم نصرًا عزيزا ، وظن ضوء المكان وأخوه والوزير أن هـذا النصر بفضل دعاء الشيخ العابد وبركته ؛ وتفقدوه فلم يجدوه ، فظنوا أنه استُشْهِدَ فى المعركة ، وما لبثوا أن يحزنوا عليه حتى جاءهم برأس كبير البطاركة ، وألقاه بين أيديهم ، ففرحوا برؤيته وقالوا : لقد خشينا أن يكون الأعداء قد أصابوكَ بسُوءٍ .

فقال : لقد كانَ بودى أن أستشهدَ فى هـذه المعركة ، ولهذا خضتُ غمارها مقاتلا بكل ما أستطيع من قوة ، وقد انتهزت فرصة سانحة قتلت فيها كبير البطاركة ، وجئت برأسه هذا إليكم ، لتقوى قلوبكم ، وتثبتَ أقدامكم : وأريد الآن أن أذهب إلى جيشكم لأحضر لكم منه مددًا يعينكُم على إبادةِ هؤلاءِ الكفرة .

فقالوا : وكيف تنفذ إلى الجيش والطريق مقفلٌ بجنود الأعداء ؟ !

فقال الشيخ العابد : سأكون فانياً فى الله ، وإذ ذاك يحمينى ربّى منهم، ويجعلُ على أبصارهم غشاوة ، فلا يرانى منهم أحد .

فقالوا : قواك الله ! وباركَ فيك ! وأعمى أَبصارهم عنك !

فقال الشيخ مخاطباً ضوء المكان : وإذا أردت أَن تجيء معى أنت وأخوك فلا بأس ، لأنه لا يراكم منهم أحدٌ ما دمتم فى ظلى ، وظلُّ الولىِّ لا يتسع إلا لاثنين فحسب .

فقال شركان : أَما أَنا فلا أَرضى أَن أفارق أَصحابى فى هذه الشدة ،

ولا بأس أن يصحبك أخي ضوء المكان فنجاته خير للمسلمين ، ولا بأس أن يصحبَه وزيره أيضا .

فقال الشيخ العابد : هذا حسن ، وأرى أن تنتظروا هنا حتى أسبقكم إلى الأعداء ، فأنظر : أأيقاظٌ هُمْ أم رقود ؟ ثم ألنا منفذ أم أقفلوا الطريق بأجسامهم وأسلحتهم ؟ !

فقال ضوء المكان ووزيره : لا نفارِقُك أيها الشيخ ، ولنذهب جميعاً وأمرنا إلى الله ، فقال : ما دمتم لم تطاوعونى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم إن لم نجد مخرجا ووقعنا فى يد أعدائكم .

وكان الشيخ العابد يبغى بسبقه أن يطلع العدو على ما دبر ، وأنه قادم بالملك ووزيره لقتلهما فى كبير البطارقة ، ولهذا ألح الشيخ العابد فى أن يسبقهم فضعفوا عن مخالفته ورضوا أن يذهب ليتبين الحال ثم يعود ، ليكونوا على بينة من أمرهم وأمر أعدائهم .

(٨)

ذهب الشيخ العابد إلى الروم ليعرفَهم خطته فى مكره بالمسلمين ، وبينما ضوء المكان وصحبُه يتحدثون فى صلاح الشيخ وكرامتِهِ ، وأنّ نصرهم كان بفضل من الله ودعاء الشيخ إذ أقبل عليهم فرحا ، وأشار على ضوء المكان ووزيره أن يسيرا خلفه ، فقدْ مَهّد للفرار السبيل ؛ فسار جميعهم حتى كانوا فى وسط الأعداء وهم ينظرون إليهم ولا يتعرض إليهم أحد منهم تنفيذا لوصية الشيخ ؛ فاعتقد ضوء المكان ووزيرُه صدق ما قال الشيخ لهم ،

إذ أنهم يَروْن الأعداء ، ويمشون أمامهم وكأن الأعداء عُمْىٌ لا يبصرون ، فمَشوْا أمامهم مطمئنين آمنين ؛ وما أَسرع أن تبدد هذا الاطمئنان ، فقد فوجئوا بهجوم سريع عليهم ، وأُسِرَ ضوءِ المكانِ ووزيرُه ، ثم سألوهما : هل معكمُ أَحدٌ ؟

فقالا : أما ترون هذا الشيخ العجوزَ ؟ فالتفتوا إلى حيث أشارا وقالوا : لا نرى أَحدًا ؛ ثم قيدوهما وساقوهما إلى خيمة الأَسرى فى جيشهم.

وفى الصباح تأهبَ شركانُ للقاء العدُوّ ، فلما التقيا سمعهم يقولون :

لقد أَسرْنا مليككم ووزيره ، وأنتم الآن بين أمرين : فإما قاتلتمونا وكان الغلب للقُوة ، وإما أسلمتم إلينا أنفسكم فذهبنا بكم إلى مليكنا ، وصالحنا كم على أن تخرجُوا من ديارنا دونَ أنْ نؤذيكم أو تؤذونا ، وهذا ما عندنا لكم ، فاختاروا ما تشاءون .

كان وقع هذا الكلام على شركان شديدًا ، وأَصبح فى قلق وحيرة من أسرِ أخيه ووزيره ، وقال فى نفسه : كيف يُؤْسران والشيخ العابد معهما ؟ ! ولماذا لم يُؤْسَرْ هو كذلك ؟ لعلهما أَغضباهُ فغضب عليهما ، وحرمهما رعايته ، ونجا هو بتقواه ورعاية الله تعالى له ! ! ثم أعلن إباءه وعدم استسلامه ، وأبلى هو وصحبه فى القتال بلاءً حسنًا ، وقتل من أعدائه كثيرين فى هذا اليوم ، ثم قال لصحبه فى أثناء الليل :

إذا استمر القتال بيننا وبينهم فقتلوا منا وقتلنا منهم — فإننا هالكون قبلهم ، لكثرة عددهم وقلّة عددنا : ولهذا أرى أن نقف على باب هذه

المغارة مدافعين عن أنفسنا ، وكل من تعرضَ إلينا منهم قتلناه حتى يصل إلينا الشيخ العابد بعددٍ من جيشنا ، وحينئذ نقابلهُم وجهاً لوجه مُسَلِّطين عليهم سيوفنا ورماحنا حتى يفروا هاربين .

فاطمأن صحبه إلى رأيه ، وباتوا متفقين على تنفيذه .

وقفوا على باب المغارة وجعلوا يقتلون كل من جاءهم من الأعداء ، ولم يكن إذ ذاك قد بقى معه من جماعته إلا خمسة وعشرون فارساً ، فلما رأى أعداؤهم ذلك تشاوروا فيما بينهم ، وانتَهَوْا إلى أن يجمعوا حطباً ، ويضَعوهُ أمام باب المغارة ، ثم يشعلوا فيه النار حتى يموتوا حَرْقاً واختناقاً ، وقبل أن ننفذ هذا ننذرهم به إن لم يسلِّموا أنفسَهم إلينا .

أنذروهم ، ففكر شركان فى الأمر ورأى الموت محتوماً إن لم يرضَ بالاستسلام ، فاستسلموا ، وسيقوا أسْرَى مقيَّدين إلى المكان المَعد لهم ؛ ثم عكف الأعداء بعد ذلك على الشراب حتى غرقوا فى غيبوبة عميقة طويلة من السكر والنوم ، فانتهز شركان هذه الفرصة وفك قيوده ثم فك قيود جماعته وقيود ضوء المكان ووزيره ، وأخذوا من سلاحهم ما شاءوا ، وركب كل منهم جواداً وفروا آمنين ، والأعداء لا يزالون يغطون فى نوم عميق . ولما صاروا فى مأمن منهم طمع شركان فيهم فقال :

أرى أن نطلُعَ فوق هذا الجبل ، ونصيح معاً مرددين :

الله أكبر ، الله أكبر . . . قد جاءتكم جنود الله من المسلمين وما أنتم منهم بناجين ؛ وحينئذ يَفْزَعون إلى سيوفهم ويظنون أننا بينهم ، وجادون

فى قتلهم ، فيضرب بعضهم بعضاً فى هذا الظلام الحالك من الليل ، فقال ضوء المكان : أخشى أن يلتوىَ عليك غرضك فنقع فى أيديهم بعد أن نجانا اللهُ منهم .

فقال شركان : لا تخش شيئاً فالله معنا .

ولما كبَّروا كبَّرت معهم الأشجار والجبال من خشية الله تعالى ، فاستيقظ الأعداء ، وفزعوا إلى أسلحتهم ، وجعل يضرب بعضهم بعضا ، ولكن ما لبث النهار أن أرسل عليهم ضوءه ، فعرفوا أنها مكيدة من الأسرى الذين فروا وهم نائمون ، فركبوا جيادهم ، وأسرعوا من خلفهم ، فأدركوهم وأعادوهم إلى حظيرة الأسر مقيدين .

وكان ندمٌ وأسف ، وكان ألمٌ وحسرة ؛ إذ نجَوْا من أسرٍ قُهِروا عليه إلى أسرٍ من صُنع أَيديهم ، ولكن القدر ينظرُ إليهم نظر مَعُونةٍ ورحمة ، فما لبثوا حتى سمعوا من خلفِهم جلبة جيش جرارٍ تملأ الجو ، وملأ آذانَ الأعداء تكبيرُهم وتَهْليلهم ؛ فأدرك الأعداء سوء مصيرهم ، وخلَّفوا الأسرى ولاذوا بالفرار مسرعين. وكان سبب مجىء هذا الجيش أن الحاجب استبطأ عودة الملك وأخيه والوزير ومن معهم ، فخشىَ أن يكونَ قد أصابهم مكروه ؛ فجاء بالجيش إليهم ، وكان خلاص الأسرى على يديه .

أما العجوزُ ذات الدواهى فقد ذهبتْ إلى إفريدونَ وحَرْدوبَ تُبشرهما بأسْرِ ضوء المكان وأخيه ووزيره ومن معهم من الفرسان ، وتحثّهما على قتال الجيش الذى كانت قد أبعَدتْهُ عن الدير وهى متنكرة

فى زى شيخ عابد — وجَدَا الأمر على خلاف ما أخبرتهما به ، وأرجأ القتال بينهما سِفَارة ، وذلك أنه برز من جيش الروم راهبٌ راكبٌ بغلة بَرْذَعتها من الحرير الأبيض ، فأسرع ذاهباً إلى جيش المسلمين ، الذى تلقّاه بحذر فقال : إنى رسولٌ إليكم ، وما على الرسول إلا البلاغ ؛ فإن أمّنتمونى على نفس بلغتكم الرسالةَ على وجهها فقالوا :

لك الأمان ! فقلْ ما تشاء .

فقال : لقد نصحت إلى إفريدونَ أن يَحْقن دماء الجنود فى جيشه وجيشكم ، وذلك بأن يجعلَ القتال مقصوراً على المبارزة بين اثنين من الفريقين ، ويكون النصرُ لمن يغلبُ منهما ، ولتكن تلك المبارَزةُ بين الملكين إفريدونَ وضوء المكان ، ويكون المغلوب منهما لا ثبات لجيشه، وليس له إلا النكوص والإدبار .

فأسرع شركان قائلًا : بَلّغه أننا رضينا ، وغداً تكون المبارزة بينى وبينه أولًا ، فإذا غلبنى بارزه الملك ضوء المكان . ففرح إفريدون بهذا القبول إذ كان من أمهر الفرسان ، وأثبتهم قدماً فى النضال . وأيقن أنه غالبٌ . إذ يعتقد أنه لا طاقة لإنسان بملاقاته ومبارزته .

فلما كان موعِد المبارزة تقدم إفريدون على جواده وقال : من عرفنى فقد هابنى ومن لم يعرفنى فسوف يرانى ! ! أنا إفريدون ! ! أنا إفريدون ! !

فبرز إليه شركان على جواده وقال : هأنذا شركان ، قاتل الفرسان ، وهازم الشجعان ، والقاطع بسيفى خيوط الأوهام والأحلام .

واستمرت المبارزة بينهما على أشدها يوماً إلا قليلًا ، ثم لجأ إفريدون إلى المكر ، فقال لشركان : يكفينا ما كان من مبارزة هذا اليوم رفقاً بالجوادين ، وسنستأنفها غدًا ، على أن تلتفتَ إلى رجالك وتأمرهم ألا يغيّرُوا لك جوادًا ولا عُدَّة حرب . فقال شركان : لك ذلك .

وبينما هو ملتفت إلى رجاله يبلغهم أمره أعجله إفريدون بحربةٍ فجرحت جلدَه من صدره ومال برأسه على قَرَبوس السَّرج ، وفر إفريدون إلى جيشه وهو يعتقد أنه قد أصاب مقتله ، وأسرع رجال شركان فاختطفوه من الميدان وسرّهم أن كانت الإصابة غير قاتلة ، وعرفوا غدر إفريدون وخيانته ، فأصر ضوء المكان على مبارزته غدًا ليسامه بسيفه إلى آخرته .

وأقبل عليهم الشيخ العابد « العجوز ذات الدواهى » ليتأكد من قتله ويَعرِف ما عزم عليه المسلمون بعد ذلك ، فلما وجده لم يمت أظهر حزنه الكاذبَ الماكر ، وجعل يمسح بيديه على جسمه وهو يتلو آياتٍ من الذكر الحكيم ، فانتعش شركان وظنوا أن ذلك بفضل دعاء الشيخ وبركته .

وفى الصباح نزل ضوء المكان إلى الميدان ونادى أن يخرج إليه إفريدون وقامت بينهما مبارزة حامية انتهت بقتل إفريدون ، فحمل الروم على المسلمين وحمل المسلمون على الروم، وأنزل الله سكينته على المسلمين وأمدهم بنصرٍ عزيز من عنده ؛ فلم يجد الروم إلا أن يفروا مُدْبرين ، وغنِم المسلمون منهم أموالًا كثيرة ، ورجع ضوء المكان إلى أخيه فوجده فى حالٍ تسُرّ ، ووجد الشيخ العابد بجانبه وهو يدعو للمسلمين بالنصر على الكافرين .

ولما علم الشيخ أن المسلمين قد انتصروا ، وأن إفريدون قد قتل — قال :
لعنه الله وجعل النار مثواه ، وقال في نفسه :
لن أبرح عن ملازمة المسلمين حتى أَقْتل شركانَ كما قُتِل إفريدون .

ثم أشار شركان على أخيه ورجاله أن يذهبوا إلى مضاجعهم لينامو ويستريحوا . ولم ينتظر مع شركانَ إلا الشيخ العابد وبعض من الغلمان ، فجعل يتحدث إليه حتى نام شركانَ وغلمانه ؛ أما هو فإنه لم ينم ، ولكنه أخرج من وسطه خنجره ، وذبح شركان ومن معه من الغلمان ، وخرج من خيمته يبغي الفرار ، فوجد الحراس أيقاظا ، كما وجد الوزير دندان في خيمته يتعبد فرآه وناداه ، فذهب الشيخ إليه وقال : لقد سمعت صوت وليٍّ من أولياء الله ، فقمت ذاهباً إليه ؛ ولكن الوساوس ساورت الوزير ، فقام يمشي خلف الشيخ ليعلم أين يذهب ! وماذا يفعل ؟ !

فلما أحسّ الشيخ أن الوزير من خلفه لجأ إلى الحيلة حتى لا يُفْضَحَ أمره ، فالتفت إلى الوزير قائلا : أخشى أن يراك الوليّ فينفر ويختفي ، ولكن انتظر حتى أقابله ثم أرجع إليك وأخبرك بما يكون .

فخجل الوزير ورجع إلى خيمته ، وحاول أن ينام ، ولكن نومه في شرود ، فقال : أذهب إلى شركانَ وأتحدث إليه حتى يغلبني النوم ؛ ثم ذهب إليه ليسْمُرَ فوجده مذبوحاً ، ووجد الغلمان مذبوحين ؛ فصاح صَيْحة أيقظت النائمين ، وحضر ضوء المكان والقواد ، وذاع هذا النبأ وأطبقت على الجيش سحابة من حزن أليم .

ثم سأل ضوء المكان : من فعل هـذا بأخى وغامانه ؟ ! ! وما لىَ لا أرى الشيخ العابد وقد تركناه مع أخى ؟ !

فقال الوزير : وهل جَرَّ علينا تلك المصائبَ والمتاعبَ إلا ذلك الشيطان ؟ ! وإن قلبى لم يطمئن إليه كل الاطمئنان من يوم أن رأيته ، لأنى أعلم أن كل متنطع فى الدين خبيث غادر ، لا عهد له ولا ذمة .

ووجد أحدهم تحت كتف شركان ورقة كتب فيها : أنا العجوز ذات الدواهى ، تنكرت لكم فى زى شيخ عابد ، وعشت بينكم مطمئنة على نفسى منكم ، حتى قتلت النعمانَ ملككم ، وقتلت رجالكم فى الجبال ، وأسرت ضوء المكان وأخاه والوزير دندان ومن معهم ، وختمت مكيدتى لكم بذبح شركانَ وغلمانه ؛ فإن أحببتم سلامتكم فارحلوا من ديارنا ، وإلا فقد جنيتم على أنفسكم ببقائكم .

وكانت قد وصلت إلى جيش الروم وأخبرتهم بما فعلت ففرحوا واستبشروا .

أشار الوزير دندان على ضوء المكان أن يعودوا بجيشهم إلى بغداد ، وفى الأيام متسع لغزو الروم والانتقام منهم ، بعد أن يستريح الجنود بين أهليهم وأولادهم ، فأصدر الملك أمره بالرحيل ، وهناك فى بغداد والقرى اطمأن الناس إلى تلك العودة وإن حزنوا على من مات من القوادِ والمجاهدين .

(٩)

وعكف ضوء المكان على إدارة شئون مُلكه مُرْجئًا قتال الروم إلى حين ، وتذكّر الوقادَ الذى أكرمهُ زمنَ محنته فأمرَ أن يجيئه ، فلما حضر أجلسَهُ بجانبه وجعل يُحَيِّيهِ ويؤنسهُ حتى عَرفه واطمأن إلى جواره ، ثم قال الوزيرُ دندان :

إن كَرمَ الخُلق فى الملكِ جعلهُ لا ينساكَ ، ولا يُغفِل شأنكَ . ويَسرُّه أن يقضى لك ما تشاء ويَهبَ لك ما تريد .

فابتهجَ الوقادُ وقال : أودّ أنْ أكونَ عريف الوقادين ، أو رئيس الزبالين فى مدينة القدس .

فضحكَ الحاضرون وقال أحدهم : اطلبْ شيئًا يليقُ بالملوك ، ويرفع شأنَك ، ويعلى منزلتَك ، ويجعلكَ فى ظل ظليل من العزة والهناءةِ .

فقال الوقّاد : اجْعلنى واليًا على دمشْق خَلَفًا لأخيكَ شركان .

فقالَ ضوء المكان : جعلتك واليًا عليها ، وليصحبكَ الوزيرُ دندان إليها ، ليمكثَ معك حتى يبصرَكَ بتصريفِ شئونها ، ثم يعُودَ إلينا ومعهُ ابنةُ أخى « قضى فكان » .

لَبِث الوزيرُ مع الوقادِ فى دمشقَ حتى درّبه على شئونِ الولاية وأُمورِ الحُكومةِ ، ثم رجعَ إلى بغدادَ ومَعَهُ بِنتُ شركان « قضى فكان » وكانتْ قد بلغت من العُمر ثمانى سنين ، ففرحَ عمها بقدومها ، وأمر أن تكونَ مع ابنه الذى قطع من عمره مقدارَ ما قطعَتْ ، فرُبِطَ

بينهما برباطٍ متينٍ من الأُخُوةِ والقَرابة ، وجعلا يخرجانِ كل يوم إلى الخَلاء يَروضانِ أنفسَهما على رُكُوبِ الخيلِ ، ومُمارسةِ النزالِ والنضالِ .

كان ضوء المكانِ قد لحقه الوهنُ ، ورأى فى ابنه مخايلَ النجابةِ والفطنةِ ، فقال لوزيره دندان : لقد عَزمتُ على أن أتنازل لابنى « كان ما كان » عن مُلكى فانظرْ ماذا ترى ؟

فقال : إنهُ لا يزالُ حدَثا وفى فجر حياته ، والمُلك خطيرٌ شأنه ، ثقيلٌ عِبْؤُه ، وأرى أن تُرجِئَ هذا الأمرَ حتى يَقْوَى على النهوضِ به ، ويبلغَ مبلغ الرجالِ من عُمره .

فقال : سأجعلُ سليمانَ زوجَ أُختِى عليه وَصيّا ، فقد أَحسَسْت من نفسى حاجةً إلى الراحةِ .

فقال الوزيرُ : ولكنى أخشى أن يُغوِىَ سُليمانَ الملكُ فلا يَرقُب فى ابنك إلًّا ولا ذِمَّة ، والدهرُ حُوَّل قُلَّب . والحازمُ العاقلُ من حَذِر التورّطَ ومواطنَ العطَبِ ، ومن الممكنِ أن تجمع بين مُلكك وراحتِك، بتكْليفِ ابنكَ كثيرًا من شُئونِ الملكِ تحتَ رعايتك وفى إمرةٍ من سُلطانِك ، فيبقَى لك الملكُ وتنالَ الراحةَ ، ويكسب ابنُكَ دُرْبةً وخِبرةً .

فقال : القلبُ الحىُّ لا يُريحُ صاحبَه ، والاضطلاعُ بالولاية شاقٌ لا يقوَى عليه ضَعفِى ونقصُ عافيتى ، ولا أَظن فى سليمانَ خيانةً وغَدْرًا .

فقال الوزير : لا زلتُ عندَ رأيى ، والأَمرُ لك ، فافعَلْ ما تشاء .

ونفَّذَ ضوء المكان إرَادتَه فجمع كبراءَ دولتِه ، وأشهدَهمْ على نفسِه

أنهُ تنازلَ لابنه عن مُلكه ، وجعلَ سليمانَ زوج أختِه وصيًّا عليه وقيِّماً ، ووصَّى أختَه نزهةَ الزمان أن تكفُلَ ابنَه وأمَّه برعايتها ، وتجعلَ لهما وقايةً من محبتِها وعطفها . وعاهَدَ سليمان أن يزوّجَ ابنَه « قضى فكان » ابنة عمه .

وبعدَ مدةٍ مرِضَ ضوءِ المكان مرضاً حبسهُ في فراشه ، وكان ابنُه يساعدُ أُمَّه في خدمتِها لهُ ليلا ، ويَصحبُ ابنةَ عمه إلى الخلاء على عادتِهما نهارًا ، ولما دنتْ ساعةُ الرحيل من أبيه قالَ له :

أُوصيكَ يا بنيَّ أن تتخذَ الوزيرَ دندان لك أبًا ، وألَّا تعصِيَ له أمرًا ، ولا تقعد عن الثأرِ لجدك وعمك من العجوزِ ذات الدواهي ، واحذرْ أن تعلقَ بك حبائلُ مكرِها ، فقد فاقت إبليسَ في دهائها وإغوائها ، واللهُ يتولاك كما يتولَّى الصالحين من أوليائه ، ثم غربتْ شمسُ حياته وشُيعَ إلى قبرهِ في حفلٍ جامع باكٍ حزينٍ .

مات والدُه وانطفأ مصباحُ حياتِه ، ولَوت الأيامُ وجْهها عنه ، فعُزِل عن مُلكه وخلفَهُ سليمانُ زوجُ عمته التي زاد حِرصُها على إكرامهِ وإكرام أمه .

بلغ « كان ما كان » خمسَ عشرَةَ سنة وهو في حَوْزةِ عمته وزوجها الذي ما زال يقوى نفوذه ويمكن لنفسه حتى أصبح مَلِكاً بعد أن كان وصيًّا ، وبلغتْ معه « قضى فكان » خمس عشرة سنة ، وكانت فتاةً تعلقُ بها الأنظارُ لجمالِها ونضارتِها وتناسُقِ أعضائها ، كما كان هو مشرقَ

الوجه جميلَ القوام ، معروفاً بالشجاعةِ والإقدامِ ، فتحدث إليها ذاتَ يومٍ حديثَ غرامٍ وهَوًى فى خلوةٍ آمنةٍ ، فوجمتْ عاتبةً لائمةً ، وشكَتْه إلى أمها وهى مضطربةٌ قلقة ، فقالت لها :

خفِّفِى عنكِ يا بُنيتى فلعلَّه لا يريدُ بكِ سوءًا ، واعلَمى أنه يَتيمٌ وابن عمكِ يحرصُ على شرفِكِ حرصكِ على نفسِكِ ، وليس فيما قُلتِه عنهُ كلمة تعيبُكِ ، واحذرِى أن تُذيعِى عنه ذلك فإنه إن بلغ الملك غَضِب وعاقَبَهُ ، وربما اشتطَّ فى عقوبتِهِ فأعْدمه ، وهو ابنُ عمكِ بمنزلةِ أخيكِ .

وما كان كتمانُ الفتاةِ أمرَ هذا الغرامِ بحائلٍ دونَ ذيوعِهِ وانتشاره حتى كان فى سَمْعِ الملكِ ، فأَمر زوجتَه أن تحجبُ ابنتها عن ابنِ عمها ، وتفرقَ بينها وبينه ؛ فأدركت أن الأمرَ قد بلغَه ، ولهذا لم تجادِلهُ فيما أمر وقالت متجاهلة : سمعاً وطاعة .

ولما دخل عليها ابنُ أخيها حسبَ عادتِهِ قالت له فى تلطُّف وشفقة : لقد بلغ الملك أنك تُحب « قضى فكان » فساءه ذلك ، وأَمر أَن تُحجبَ عنك ، وأَلَّا تُقابِلَهاَ أو تراهاَ .

فقال : وماذا فى الحب من ذَنب أو جريمة ؟

فقالت : يخشى ما قد يجُرُّ إليه من خطأٍ ومزلة .

فقال : وإذا كان ذلك جائزًا وقوعُه فلن يَجرىَ على يَدِ مِثلى .

فقالت : ولن يحزنكَ أن يُبالغَ الملك فى الحذرِ والحيطة .

فسكتَ متألماً ، وانصرفَ إلى أمه فأخبرها بما سمع من عمتِهِ فقالت :

ذلك بما قدمت يداك ، فما فَتِئْتَ تتحدثُ عن حُبك ، حتى ملأتَ به الأمكنةَ ، ووصل الخبر إلى الملك ، وما كان له أن يفعل غير ما فعل ، وقد كان حازماً ، فى عِلاج هذا الداء الذى خلقْتَه بحديثك عن عِشقكَ فتاةً فى قصر ملكٍ هى منهُ بمنزلة ابنتِه . فقال : ما أردتُ بحديثى إلّا الزواج المشروع وليس فيه عيبٌ أو غضاضة .

فقالت : وما ذلكَ الحديثُ على هـذا النحوِ بسبيلٍ إلى الزواج ، فأمسِكْ عن حديثك ، وإلّا فقد فتحت علَى نفسِكَ أبواباً من الآلامِ والأحزانِ ، وإن كان الله قد جعلَ ابنةَ عمكَ من نصيبك فلن يتزوجها أحدٌ غيرك ، واصبرْ وما صبرُك إلّا بالله .

فقال : سأجعلُ بينى وبينهم سَدًّا بحيثُ لا أراهم ولا يرانى أحدٌ منهم ، وقد أسلمتُ أمرى إلى الله .

ومَضتْ مدة طويلة لم تَرَ الفتاةُ فيها ابن عمها ، فسألَتْ عنه أُمَّه ، فقالت : إنه يهوَاكِ ، ويَوَدُّ أن يراك ؛ ولكنه قد حِيلَ بينه وبين لُقياكِ .

فقالت : إنَّ فى قلبى من محبتِهِ أضعافَ ما فى قلبِـهِ ، ولولا عثرات لسانِهِ لكانَ أمرُنا على غيرِ ذلك ، ولكنَّ الصبرَ مفتاحُ الفرج ؛ ومن حَكم علينا بالفِراق يَمنُّ علينا بالتلاق . ففرحتْ أُمُّه وشكرت لها جَميل عطفِها ، وخالصَ وفائها ؛ ثم أسرعت إلى ابنها ، وألقتْ فى أُذنهِ ما جرى بينها وبين ابنةِ عمه ، فقال :

وجَديرٌ بى أن أكون أعظمَ منها صـبراً ، فلا تَدرِى نفسٌ ماذا

تكسبُ غداً ، والحكمُ للهِ العليّ القدير .

ولما بلغ السابعة عَشْرَةَ من عمرِه كبر عندَه أن يلبث فى أغلال الهوَى دونَ أن يتخذ سبيلاً إلى نيل ما يريد ، وقد شارفَ الرجولَةَ التى تأبَى الخنوع والانزواء ، فعزمَ على أن يغادرَ بغداد فى صباحِهِ الباكر إلى حيثُ يجد مراغماً فى الأرضِ وسَعة .

وانسلّ منها صبيحةَ يوم حافياً ، يلبسُ قميصاً قَصُرَتْ أكمامُه ، ولا يحمل من الزاد إلا رغيفاً واحداً ، وركبَ السبيل إلى غير مقصدٍ من مكانٍ معين ينزلُ فيه .

وغرقتْ أمه فى بحارٍ من الأحزانِ والهمُوم ، إذ انتظرتْهُ ليلةً وأُخرى فلم يرجعْ إليها . وذاع نبأُ غيبَتِه حتى وصلَ إلى علمِ الملك سُليمان زوجِ عمته ، فتذكَّر والده ، وأنه سبب نعمتهِ ، كما تذكَّر وصيتَه به ، فبعث الأمير تركاش فى مائةِ فارسٍ يبحثُون عنه ، ولكنهم رجعوا بعد عشرةِ أَيام دونَ أن يعثروا عليه ، أو يسمَعُوا له خبراً ؛ فأصابه غمٌّ شديد ربما كانَ صدًى لما يحملُه قلبُ أمه وعمتِهِ وابنتها من غم عظيمٍ لفقْدِهِ وانقطاع خبره .

غادَر « كان ما كان » بغداد ، وحملتْهُ قدماه إلى أرضٍ لا إنسانَ فيها ، ونزلَ بها ضيفاً على الطبيعة ، فطَعِمَ من نَباتِها ، وشربَ من مائِها ، وأوى إلى ظلّ ظليلٍ من أشجارِها ، وصاحبَ نهارها بيقظتِه ، ولياليها بنومِه ، وانتبَه ليلةً من لياليه على صوتٍ يقول : لاحياةَ مع اليأسِ ! ولا يأسَ مع الحياة !

وكانت الليلةُ شديدةَ الحلكةِ فلم يستطع أن يرى أحدًا . فمكث حائرًا قلقًا حتى سمع الصوت ثانيةً يقول :

الحظُ في السعْيِ والعملِ ، والحرمانُ أليفُ الخنُوع والكسل ، ومن أَخلدَ إلى النوم رَبح اللومَ والفشَل .

فأحبَّ أن يتخذَ صاحبَ هذا الصوتِ له رفيقًا فنادى : أيُّها الساري، هَيّا إليَّ فلعلك في حاجةٍ إلى رفيقٍ أو مُعين ! !

فأجابه : ومن أنتَ ؟ ! أسرعْ وأَجِبْ قبل أن يَحُلَّ بك العطَبُ .

فقال الفتى : رجلٌ فقيرٌ عابرُ سبيل ، ولك الفضلُ إن اتخذتَني لكَ رفيقا .

فقال صاحب الصوت : فقيرٌ وابن سبيل ، وتطمع أن تكونَ للفارس مياح رفيقا ! ! لا بُدَّ من قتلكَ أيُّها الغِرُّ الجاهلُ .

فقال الفتى : ولكنَّ الفارسَ الهمامَ يأبى أن يرفَع في وجه الأعزل الحسام ، وإن أردت الإنصاف ، وأبديت الرجولة فترجَّلْ وتجردْ من سلاحِكَ وصارِعني ، فأيُّنا غُلِب فهو لصاحبه .

فرد صاحب الصوت . انتظرني مكانك حتى ينزِعَ الصباحُ عنا حُلْكةَ الليل .

فقال الفتى : إني هاهُنا قاعدٌ حتى تشهد علينا شمسُ الصباح . وجاءه مياحٌ طامِعا ، وعلى ثقةٍ من نفسِه أنه سيغْلِبُه ، ولكن الفتى «كان ما كان» أمسكَهُ بيديه ، ورفعهُ إلى السماء وهو لا يستطيعُ حَراكا ولا فَكاكا ، ومشى به.

فقال مياح : إلى أين تذهَبُ بى ؟ !

فقال : إلى هذا النهر الذى تَراه ، وهذا النهرُ يسيرُ بك إلى دِجلةَ ، ودجلة يُسلمُكَ إلى بلدك إن كنتَ من هناك .

فجعلَ مياح يتوسلُ إليه أن يطلقَهُ حتى أشفَق عليه وأطلقه ، فتقلد سيفَه وحمل ترسَه ، ووقف كأنه فى حَيرة ، أيقتُلُه أم يتركُهُ ؟ ! فأدركَ « كان ما كان » ما فى نفسه وقال : إنى مخلِّصُكَ من حيرتك ، فأعطِنى الترسَ وخلّ السيفَ لك ، ثم بارزنى فإما قتلتِنى وإما قتلتُك ، ففرح مياح وأيقنَ أنه قاتلهُ ، وأنهكَ نفسه مُحاولا أن يصيبَه ، وكلما جهدَ وأبلى أصابَهُ اليأسُ وغاب عنه الرجاء ؛ ثم أمسكه « كان ما كان » وحملهُ ومشى ، فسألهُ عما يريد به هذه المرة فقال :

سألقيكَ فى النهر يطوّحُ بك حيثُ يشاء هو أو حَيثُ تشاء أنت ، وقد تتوسّلُ إليه فيجيبُك إلى ما تريد .

فقال مياح : لن أتوسّل إلا إليك ، فاتخذنِى غلاماً أخدمك وأُعينكَ ، وغفر اللهُ لامرئ عرفَ قدرَ نفسِه .

فعفا عنهُ ، وجَلسا يأكلانِ أقراصاً من شعيرٍ كانتْ فى جراب لمياح ؛ ولما سألهُ « كان ما كان » عن مقصدِه من سفَرِه قال : كنتُ أبتغى الإقامَةَ فى بغدادَ حتى أحصُلَ على صداقِ فتاتى الذى خرجْتُ من أجلِه ، فدلّهُ على طريقها ووَدّعهُ إليها .

(١٠)

أما « كان ما كان » فقد ساوَرَه اليأسُ من الرَّحيلِ ، ونَضَبَ معينُ أَمله فى الحصولِ على ربح منه ؟ كما خَجِل أن يرجِعَ إلى بغداد صفرَ اليدين بعد تلكَ المدة التى عانتْ فيها أُمه أَسقامَ الأحزان ؛ فتوضأً وصلّى ودعا الله فى سجودِه قائلا : اللهم ارزُقنى بفضْلِكَ وكرمكَ فأنت خيرُ الرازقين ، ثم جلسَ يستغفرُ الله ويرجو رحمته ، فأقبل عليه فارس « مجروح » على جوادٍ أرخَى عِنانَه ، وقال: أَسْعِفْنِى بشربةٍ من ماء وأَرِحْنى بجوارِك حتى يأتينى أَجلى ، أو يَمُنَّ علىَّ بالحياة ربّى ؛ فأسرع إليه وسقاه وأضجعَهُ بجواره ثم سأَلهُ عن حاله ، فقال :

أنا غسَّان السَّلال الفارسُ ذو الحولِ ، عشْتُ دهرِى أسرِق الخيلَ ، وقد وصلَ إلى علمى صِيتُ هذا الحصان وشهرته ، وكان لإفريدُون ملك القسطنطينية ، فذهبت إليه ولبِثتُ أرتقبُ الفرصةَ السانحةَ لاختلاسه وسرقته ، فخرجتْ به عجوزٌ تسمى ذات الدواهى فى عشرةِ عبيدٍ ، وكانت تقصدُ بغداد فى طلبِ صُلحٍ بين المسلمين والروم ، فتبعتُهمْ مُحاولا اختطافَ الحصان، ولكنَّ يقظةَ العبيد حالتْ دون ذلك ، ثم طلعَ عليهم فى طريقهم أربعون فارسا من قُطَّاع الطريق فساقوهم أَسرَى ولكن ذات الدواهى جعلتْ تسترحمُ زعيم العُصْبة ، وتقسمُ له أن تمدّه بكثير من الأنعام والخيل حتى أَطلقهم ، ولكنه أمسكَ عليه هذا الحصانَ فتبعْتُ الفرسانَ الأربعين ، وانتهزتُ فرصةَ غفلتهم ونَومهم ، وامتطيتُ الحصانَ وفررْتُ به ؛ وسرعان ما أحسُّوا واستيقظُوا فرمَوْنى بنبالهم ،

وأُصِبتُ بجرحى هذا ، ودأَبَ الحصان فى الجرى حتى وصلْتُ إليك ، وأراكَ الآن فى فقر ولـكنَّه لا يُخفى نعمةً وعِزَّةً سالِفَتَيْن. فمن أنتَ ؟

فَسردَ عليه تاريخه إلى ساعته فقال له . أَبشرْ بفضل الله عليكَ، فإنه لنْ يَكلَ رجُلاً مُؤمنا مثلَك إلى نفسه ، وعمَّا قريبٍ يعودُ إليك مُلْكُكَ وتكون أَسمى مقاما ، وأَعزَّ جانبا ، وأَقوى نصيرا ، فإن الله لا يرضَى لعبادِه المؤمنين ذِلَّةً ، ولِى عندَكَ الآنَ حاجة ، وهى أن تحملَنى إلى ظهرِ جوادِى هذا وتركب من خَلْفِى لتُمسكنى أَن أَقعَ على الأَرض ، ثم تذهب بى إلى أهلى ؛ فإن جاءَنى أَجلى فى الطريق فلكَ هذا الجوادُ هبةً منى ، فقال كان ما كان : لو استَطعْتُ أَن أحملك على كتِفِى إلى أهلك لفعلْتُ ، ولو كانَ عمرى مِلك يمينى لوهبتُ لكَ نصفَه ، ثم نهض ليحمله فقال : أَنظرنى قليلا ، وما هىَ إلا برهة حتى سمع الرجل يقول :

أَشهدُ أن لا إله إلا الله ، وأن مُحمدًا رسول الله ؛ ثم شهقَ شهقةً كانت آخر حياتِه من الدنيا . فَواراه الترابَ وامتطى جوادَه ، ورجعَ به إلى بغداد وفى أثناء عودته التقى بجماعةٍ من التجار ، فعرف منهم أن الوزير دندان شقَّ عصا الطاعَةِ على الملكِ سليمان ، ومعه كثيرٌ من الأَنصار والأَعوان ، وأقسمَ أنه لا يُغمِدُ سيفه حتى يرجع « كان ما كان » ويجلس على عرش المُلكِ الذى تنازل له عنهُ أبوه . كما عرف أَن سليمان فى ذعرٍ واضْطرابٍ وحَيْرة ، ويتمنى عودتك ليجعلَك تعلنُ رضاكَ عنهُ بإمارةٍ يُعطيكها ، فتخمد الفتنة ، وترد سَيْفَ دندان إلى نحرِه .

وما أعظمَ فرحةَ أهل بغداد حينَ رأَوْا « كان ما كان » مُقبلا على

جواده !! وما أعظم فرحةَ سليمان الملكِ حينَ بلغه عودتُه !! وما أعظم فرحةَ أمه حين دخَل عليها مُحيِّيا مقبِّلا يديها !! وما أعظم فرحة عمته نزهة الزمان وبنتها إذ عرفوا رجعته على حصان لم تقع أنظارُ بغداد على مثله، واستبشرتا بهذه العودة، وظنتا أنها أول بارقةٍ من أيام هناءته المقبلة !!

وأحضرَهُ الملك بين يدَيْه، وهنأهُ بسلامة عودَتِه وقال له: لقد كنَّا في غمّ عظيم من أجل غَيْبتك، وقد بعثْتُ الفرسانَ يبحثون عنك فلم يجدوك، والحمدُ لله الذى رَدَّكَ إلينا في سلامةٍ وعافية، فأنت بمنزلةِ ابنى، وما طابَ لى عيشٌ مدةَ غيبتِكَ عنى، ثم أمر أن تجرى عليه وعلى والدته الاموال، وأن يحاطا بالحفاوة والإجلال.

ثم رجعَ إلى أمه وأطْلَعَها على ما لَقِيَه به الملكُ سليمان، فقالت: لعله وجد في عودتِكَ تَخلصا له من ظلام تلكَ الفتنة القاتمة؛ ولولا ذلك ما فَرِح بلقْياك؛ فالإنسانُ الغادرُ عبدُ منفعته، وهادمٌ لصرْحِ كرامتِه، فلا تغرنكَ بشاشة وجهه، وحلاوةُ قوله، فهما ستارٌ لما خلفهما من داءٍ دفين، وغَدرٍ كمين؛ وأخلصْ لله في سِرِّكَ وعَلانيتك، واجعله عَوْنك ونصيرك.

وبعد جَلسةٍ قصيرةٍ قضيَاها في أحاديث مختلفةٍ سألها عن ابنةِ عمه: فقالت: شغلتْنى غيبتُك عن رؤيتها ومعرفة شيء عنها، فرغبَ أن تذهبَ هى إليها، وتعرض عليها رغبتهُ في لقائها، فقالت: اترك هذا الأمر يجرى على سجيَّته، واشغل نفسكَ بمعالى الأمور، ولهذا فإنى سأزورُها دون أن أحدثها في شيء عن هذا اللقاء، والأيام كفيلة بتحقيق ماتريد: وقد يكون لك في مستقبل أيامكَ ما يَجْعَلُها تسعى إليك.

فاطمأن إلى مشورتها ، ثم قال: لقد أخبرنى غسان السلال أن العجوزَ ذات الدواهى التى قتلتْ جَدى وعمى قادمةٌ إلى بغداد، وتلكَ فرصة لقتْلها .

فقالت : تلكَ عجوزٌ ماكرة ، فاحْذر أن تقع فى حَبائلها ، ولا تصدق لها قولًا مهما يكن من أمرِه . وإذا أمكنتْك الفرصةُ منها فلا تُرْجئْ قتلها لحظة .

فقال : سأكُون على حَذرٍ منها ، وأرجُو أن يَصدُقَ نبأ قدومها . ثم خرجَ إلى بعضِ شئُونه ، فتذكر عجوزًا ماكرة تسمَّى سعدانة ، فذهب إليها فى دارها لزيارَتها . وجرَى بينهما حديثُ ابنةِ عمه ، ورغبتُه فى لقائها ، فقالت : دَعْ لى أمرَ هذا اللقاء ، ولا تشغلْ به نفسَك ، وانتظرْ عودتى من زيارتها .

فلما كانت عندَها وجدتْها فى رغبةٍ ملحة إلى لقائِه ، ولكنَّها لا تعرفُ السبيلَ إلى تنفيذِه ؛ فأشارتْ عليها العجوزُ أن تزورَهُ فى مقصورته إذا هجعَ الناسُ ، وانتصفت الليلةُ القادمة . وأَمِن عليكِ الحراسُ والرقباء . فرضيتْ وكلفتْها أن تخبرَه بذلك ، ثم سلمت العجوزُ عليها وانفلتَتْ إليه ، وبشرتْه بالموعد المضروبِ للقاء المنْشُود .

لم تُخلفْ « قضى فكان » وعدَها ، وجاءتْه فى مقصورَتِه ، وأيقظَتْه من نَومِهِ قائلة : أتنامُ عن مَوعدٍ منّى بَعد تلك الغيبةِ الطّويلة ، ولما يَمضِ من الليل إلا نصفُه ، فأسعفَتْه قريحتُه وقال :

ما نمتُ إلا طمَعًا فى أنْ يزورَنى طيفُ خيالٍ منك قبل أَن أراكِ .

فقالت : ولكنَّ طيفَكَ لا يفارقني في اليقظةِ والنوم .

فقال : وذلكَ ما سعِدَتْ به حَياتي . وجعلا يتحدثان في براءةٍ وعِفة ، حتى ودعتْهُ في الصباح إلى مقصُورتها ، وكانت أطلعَتْ بعض جواريها على تلك الزيارة فخشيَتْ إحداهُنَّ كتمانها ، ونقلَتْ خبرَها إلى أمها وزَوجها سليمانَ الملك ، فغضبَ وَهمّ أن يضربها ولكنَّ أُمها حالتْ بينه وبينَها قائلة : إنكَ إن ضربْتَها ذاع أمرُ زيارتها ، وأصبحت الفتاةُ حديث الناس ، وألحقت بنا الخِزىَ والعار ، وظلمتَ الفتاة البَريئةَ ، فإنَّ ابنَ عمها ذُو رجولةٍ ومُروءة ، ولا تنسَ أن الوزيرَ دندانَ قادمٌ عليك بجندِه ليعزلوك أو يطردُوكَ أو يقتُلوكَ ، ثم يولوا ذلكَ الفتى مُلكَ أبيه ، وهو إذ ذاكَ لا ينسَى قسوتَكَ وظُلمكَ ، فقال : هذا إن تركتُه حيًّا يُرزق . وستُريكِ الأيامُ بما أنا فاعلٌ به ، ثم تركَها وانصرف إلى شأنِه .

وأراد « كان ما كان » أن يَخرجَ من بغداد غازيًا للحصُول على مالٍ يمكنُه من أن يخطُبَ ابنة عمه خِطْبةً صريحةً ، وعرض الأمرَ على والدته فقالت : أنت وحدكَ يا ولدى ، ولنْ تجد في غَزوكَ هذا إلا كثرةً من الفرسان والأبطال ، والكثرةُ تغلبُ الشجاعة وإن كنتَ منها فى الذِّروَة ، وليسَ من العقلِ في شيء أنْ يَغترّ المرء بنفسِه ويُلقِيَ بها في التهلكة .

فقال : لأنْ أهلكَ ساعيًا مُجاهدًا خيرٌ من أن أعيش كلاً خاملا .

وأرسلَ العجوزَ سعدانةَ إلى ابنةِ عمه لتنبئَها ما عزمَ عليه ، فجاءته من عندِها بوعد منها لزيارَتِه في منتصَف الليلة المقبلة .

ولما سكنَ الليلُ وانتصفَ كانت بجواره تتحدثُ إليه، وتُثبِّتُ قدمَه على تنفيذِ ما أراده من ضَربٍ فى الأرض لِلكَسبِ والمَغنَم وقالت له: إن قيمةَ المرء وكرامتَه فى عملِه وتعبِه، لا فى قُعودِه وفراغِ يده. والرجولةُ دأبٌ وكفاح، وإنّى أُحبُّك لأهلكَ ووطنِك أكثرَ مما أُحبُّك لنفسِى، وقد جئتُك الليلةَ مودِّعةً راجيةً أن تَعود إلينا مُوَفَّقاً سالماً، ولا يشغلكَ منى شاغِلٌ، فإنى لن أبرحَ وفيةً لكَ، وتصحبُك السلامةُ فى غُدُوِّك ورَوَاحك. وإلى اللقاء، ثم سلّمتْ ورجعَتْ إلى مخدعها.

وفى الصباح ودَّع أُمه، وتقلَّد سيفَه، وركبَ جواده؛ فلما كانت بغدادُ دَبْرَ ظَهرِه لَقِىَ مياح بن رباح، فعرضَ عليه أن يصحبَه، فوافق هذا رغبةً فى نفس صاحبِه؛ فقال: أُصاحِبُك حيث تكون على أنك ولىُّ الصُّحبةِ، وسيدُ المرافقة. ثم ابتلعتهما الصحراء يغذوهما الصيدُ، وتسقيهما العُيون، حتى أشرفا على تلٍّ يُطل على مرعًى حافل بالإبل والغنم، فقال «كان ما كان» لصاحبه: لقد خرجتُ لكىْ أنالَ بسيفى مالاً كالذى تراه الآن، وقد عزمْتُ على قتالِ هؤلاء العبيد وسَوْق أنعامهم أمامى إلى بغداد، وعليك أن تنشَط فى معونتى.

فقال له صاحبه: وكيف نغلبُ هؤلاء العبيد وهُمْ كثرةٌ لا تُغنى معها شجاعتنا، وقد يكُونُ سادتهم وأصحابُ هذا المال على مقربةٍ منا، تلك مغامرة خاطئةٌ!! ومن المحال أن نخرج منها سالمين، فدعْنى فى معزلٍ عن هذا الموت المحقق. فابتسم «كان ما كان» ضاحكاً من قول صاحبه،

وقال : دَعْ أنت الكفاح لذويه ، ومن حرص على الموت وُهِبَتْ له الحياة .

ثم نزلَ وحده بجوادِه إلى الأنعام فساقها ، وهزم رُعاتها ؛ وكانت هذه الأنعامُ للعصبة الرومية التي سرقَ منها جوادَه الذي يركبهُ ، ثم نزل إليه صاحبه مياح من ربوته التي قبعَ فيها مخافةً وعجزًا ، وهنأه بما غنم ، وصاحَبه في سيره : واعترضَهما في سَبيلهما أَصحابُ تلك الأنعام ومعهم رئيسهم كهرداش . فأحاطُوا من حول الأنعام وحبسوها حيث وَقفتْ ، ونظر رئيسهم إلى « كان ما كان » فحسِبَهُ الفتاةَ فاتنَ التي يُحبها ، إذ كان في جماله وقوامه أشبه شيء بها . وكانتْ قد قرَّرتْ ألّا تتزوج من إنسانٍ إلّا إذا بارزَتْه وغلبها ، فظنَّ أنها خرجتْ لتبارزَه ، وتغلبَ له ، كي يتزوجها ؛ فقال : ما هذا يا فاتن ؟ ! أتظنين أني أُجرِّدُ في وجهكِ سَيْفِي ؟! إن قلبي لا يطاوعُني أن أشهر سيفي على من ملكتْ نفسي ، فاطرحي المبارزة وتعالَيْ أتحدث إليكِ ، فأطلعكِ على ما يكنّه صدري لكِ من محبةٍ وإخلاص .

فقال « كان ما كان » : أسَفِي عليك أيها الفارسُ الأحمقُ الجاهلُ ، إذْ أَصْبحتَ لا تُفرِّقُ بين الرجُل وغيرِه ، ولا تميزُ الرجالَ من النساء .

فأدركَ أنه أخطأ في زَعمِه ، ووَجدَ نفسَه أمام فارس يُخشى بأسهُ ، ويَقطُرُ الموتُ الزؤامُ من سَيْفه ، فأمر جماعته أن يُقاتلوه ، ولكنه ابتدرهُمْ وهجَم عليهم وجعلَ يقتُلهم واحدًا واحدًا حتّى فرُّوا من أمامه ، وعلم كهرداش أنه لا طاقةَ له بقتالِ هذا الفارس ، فعرضَ عليه أن يأخُذ ما شاء من هذه الأنعام ويذهب إلى سبيله ، فقال له :

لا بُدّ من مبارزتك حتى أذلّ كبرياءك .

وكان النزال ، وقُتل كهرداش ، وأقبلَ مياح وقطع رأسه وحملَه على سنان رُمحه ، وكان سرور بغداد بقتل كهرداش عظيماً ؛ لأنه أزعج الأمن فى السبلِ ، وألقى الرعْب فى قلوبِ القوافل . وأخذ « كان ما كان » يوزع ما شاء من مغانمه على من شاء من الناس ، فزاد حبهم له ، واشتد التفافهم من حوله .

ولما بلغ الملك سليمان نبأُ عودتهِ على تلكَ الحال السَّارة حزنَ حُزناً شديداً ، إذْ كان هذا القدومُ أشدَّ على عرشه من رجفة الزلزال ، وأيقنَ أن ملكه زائلٌ إن لم يعجِّلْ بقتل « كان ما كان » ، فجمعَ الخواص من حاشيته ، وشاورهُم فيما يفعلهُ لحماية نفسه ومُلكه ، فقالوا : لا يُميتُ الفتنة فى مَهدِها إلّا قتل « كان ما كان » ، وما دام حيًّا فالخطرُ قائم ، والشعب ثائر والوزير دندان غيرُ ساكت عن قتالك ، وانفضَّ المجلس على أن يقومَ الملكُ بقتله بالوسيلةِ التى يَراها .

عَلِمتْ « قضى فكان » ما استقرَّ عليه رأيُ الملك وجماعته ؛ فأرسلتْ إلى ابنِ عمها العجوزَ تحملُ إليه نبأ قتلِه ليأخُذَ حذره ، فقال لها : أقرئيها السلامَ ، وبلّغيها أنَّ الأرض للهِ يُورثُها من يشاء من عبادِه ، والعاقبةُ للمُتّقين .

وكَّلَ الملكُ قتلَه إلى جماعةٍ من الفتية ، فترقبُوا خروجَه هو وصاحبه مياح إلى الصَّيدِ ، ثم تبعوهُما حتى أبعدُوا فى الفلاةِ ، وهناك هجموا عليهما ، ولكنَّ اللهَ أعانه عليهم ، فقتلهم جميعَهم وتركهم إلى شأنِه غير

عابئٍ بما يفاجئه من الحوادث وكان الملكُ قد خرجَ فى أثرهم ليقف على ما سيفعلونه به ، فوجدهم قد قُتلوا جميعهم ، فرجع خائباً حزيناً ؛ وطار نبأ قتلهم إلى أهليهم فنفروا مُسرعين إليهم ، وقابلوا الملك راجعاً تعلوه الكآبة ، ويُضنيه الغمّ ، فأمسكوه وقالوا : أنت الذى قتلتَ أبناءنا ، وحبسوه فى مُعتقلٍ لا يعرفهُ أحدٌ وتركوه فيه يموت صَبْرًا .

ولما انتهى « كان ما كان » من صيده رجع هو وصاحبُه ، فلمحَ بالقرب من طريقه بيتاً من صُوف أمامه شابٌ فتىّ ، فدلفَ إليه ، وسلَّم عليه ، فردَّ سلامَه ، ودعاه أن يكونَ ضيفَه ، فلبّى دعوته وجلسُوا أمامَ بيته ، ولما حضر الطعامُ أبى أن يأكُلَ متعلّلاً بأنهُ نذر ألّا يذُوقَ طعاماً حتى يقتل خصمَه ، فسألهُ صاحبُ البيتِ عن شأنه ، فحكى قصتَه مع سليمان الملك فقال الفتى: لقد رفعَ القدَرُ عنكَ عِبْءَ قتله ، فهو الآن محبوسٌ فى قُبةٍ لا يدخلُ عليه فيها أحد ، ليموت جُوعاً ، وأشار إلى القُبةِ التى حبسهُ فيها أهلُ الفتيةِ المقتولين ، وكانت على مسافةٍ غير بعيدةٍ من بيتِ هذا الشاب ، فعزم « كان ما كان » أن يذهب إليه بعد أن ينام الشاب المضيف ، ليعجل بقتله والإجهاز عليه ، ثم أقبلوا على الطعام فأكلوا حتى شبعُوا ، وجعلُوا يتحدثون حتى غلبهم النوم فناموا ، ثم انسلَّ « كان ما كان » هو وصاحبه فى سكونِ الليلِ ، ودخلَ هو على الملك سليمان فى قبّتِهِ ، فلما رآه سليمان علتْ وجهَهُ صفرةٌ من مخافةٍ وندم ، وقال : أهلًا بالفارسِ البطلِ ، ذى النفسِ الأبيةِ ، والهمة العليَّة ، والخُلق الكريم .

فقال : لا يعرفُ الملق إلا لئيمٌ ضعيف ، لعلّك نسيتَ ما دبَّرتَه من قتلي وهلاكي ، فكيف أنت الآن ؟ !

فأقسم أنه ما دَبَّرَ شيئاً يسوءه ، وأنه في أشد الحاجةِ إلى معونتهِ ، وإطلاقه من حبسِه .

فرحِمَ ضعفَه وتذلّلَه ، وفكّه من قيودِه ، ورَجع إلى بغداد به ، وكان مياح قد سبقهما إلى المدينةِ وأذاعَ نبأ قدومهما ، فأسرعَ الناس إلى « كان ما كان » ، وأحاطوا به إحاطَة إجلالٍ ومحبة ، وأعلنوها صريحةً واضحة : لا ينبغي أن نُضْفِي بالملك غيرَ أهلِه ، ولا أن نُورِدَه غيرَ مواردِه ، وإنَّ « كان ما كان » خيرُ من يَقومُ على شُئونِه ، وينهض بأعْبائه .

ولما دخلَ سليمان على زوجتِه نزهة الزمان قالتْ له : استفاضت الأحاديثُ عن شجاعةِ « كان ما كان » ، وكرمِ خلقه ، وصفاء قلبه ، واستقامةِ تدبيرِه ورأيه .

فقال : كذَبتِ وكذبَ الناسُ ، فما راءٍ كمَنْ سَمِع ، وإن الجُمهُورَ يُصدِّقُ الأخبارَ دُونَ تمحيصٍ أو تثبُّت ، وقد انساقَ الناسُ في مدح « كان ما كان » وقلَّد بعضهم بعضاً ، حتى ألفُوه وأحاطوا به ، وأخشى أن يأتيهم الوزيرُ دندان بجندِه فيزداد بهم قوّة وقد لا أستطيعُ حينئذٍ دفعه ، وما كان لمثلي أن يسكُت على هذه الحال ، أو يَرْضى أن يغتصبَ المُلكَ منه يَتيمٌ خاملٌ وضعيفٌ جاهل .

فقالت : وماذا رأَيت في عِلاج هذه الشدة ، وإخماد تلك الفتنة ؟ !

قال الملك سليمان : إن خير الدواء الكى ، ولا بُدّ من قتل « كان ما كان » لأفسدَ بقتله تدبيرَ الوزير دندان ، وأحبطَ عمل الشعب ، وأكتم أنفاسه .

فقالت نزهة الزمان : إذا قَبُح الغدرُ بالأجانب فهو بالأقارب أقبح ، وإذا أدبر الزمانُ عن إنسانٍ فلنْ يستطيع أن يغلبَه ، ومن يشاقِق الزمان وهو عاجزٌ فقد أضرَّ بنفسه ، وأعان الزمان على تلفِه .

فقال الملك سليمان : ولهذا فإنى أجدكِ عوناً للزمان عَلَى مَا بليتُ به من ثَوْرةِ الشعب ، وتمرّدِ الوزيرِ ، واهتزازِ العرشِ من تحتى : ولولا أن فى كلامكِ ريحاً من نصحٍ لا أستسيغُه ، ويُبرِّئُكِ من تهمةِ الانزواء عن مُؤازرَتى — لضربتُ عُنقَكِ بسيْفى .

فقالت : إنى معك فى كل ماتُريدُه ، والنصحُ أسمى درجات المعونة ، فأشرْ بما تُريد فإنى مُطيعة ، وإذا كنْتَ مصرّاً على قتله فاجلس معى قليلاً حتى نَخلق حيلةً نغتاله بها دونَ أن يلحَقنا منها شُبهةٌ . فاطمأنَّ إليها وجلس قائلا : لقدْ نخلْتُ مخزونَ رأيى وأتيتُ على آخرِ عصارةِ من فكرِى ، فلم أجد باباً ألجُه إلى قتله ، فماذا أنت فاعلة ؟

فقالت : إن أمر قتله هيِّن ، فإنَّ جارتنا « باكون » داهية فى المكْرِ تواقة إلى الغدر ، وهى التى قامتْ بتربيتِه مع ابنةِ عمه ، وهو يحبُّها ولا يكادُ يخالفها فى أمرٍ تُريده ، وما علينا إلا أن نَـكِل إليها أمرَ قتله ، وهى لا تعجزُ عن وسيلةٍ تُميتُه .

فقال : أصبت وأحسنْتِ ، إنكُنَّ أيها النساءُ سباقاتٌ في مضمارِ الخبث والسُّوء ، وإنكُنَّ مراجِعُ الشيطانِ فيما يُزيِّنه للناس من شرٍّ وأذًى ، وأمر بإحضار الجارية فكلفها بقتلِه .

فقالت على الفور : أعطِني خنجرًا مسمومًا ، وارتقِبْ قتلَه سريعًا .

ذهبت الجاريةُ باكون إلى « كان ما كان » في حجرتهِ فوجدتْه مطرقًا وظنَّتْه يفكِّرُ في بنتِ عَمِّه فقالت :

أرى بوادِرَ الوِصالِ مُقبلَة ، وأواخر الهجران مُدْبِرة .

فابتسم لها قائلًا : لعلك مقبلةٌ من عند ابنةِ عمي ، تحملين رسالة آثَرَتْكِ بها .

فقالت : أحملُ إليك حبها وشَوْقها ورغبتها في الزواج منك ، وقد جئتُك الليلة لأبيتَ عندك وأسليك بفنونٍ من الأحاديث والأخبار ، فقد عزَّ على ابنةِ عمك أن تبيت الليلةَ جميعها دون أن تقضى منها جُزءًا في تسليةٍ تُقصِّرُ من طولها ، وتخفف عنك عِبْئها .

فقال : شكرًا لها ، فاجلسي وتحدثي بما تشائين ، فإني أجدُ في حديثك أشْهى لذة ، وأعظم فرحة . فجلست وفي داخل ثيابها الخنجر المسموم ، وجعلتْ تقصُّ عليه حكايةً في إثر حكاية ، حتى غلبَه النومُ فنامَ ، والجارية يقظةٌ لم تنمْ ؛ فلما وجدتْه قد غرِقَ في نومه ، أرادتْ أن تُخرِجَ الخنجر من ثيابها وتَذْبحه ، وإذا أمه مقبلةٌ عليها في سرعةٍ خاطفة ، فنهضت قائمة وهي في حالٍ مريبة تحاولُ إخفاءه ، ولكن الرعشة لا تفارقها ، فأيقظَتْه أمه وكانت رسولَ نجاته من يدِ هذه الجارية الخائنة .

وكان سبب مجيء أمه فى تلك الآونة من الليل أنَّ ابنةَ عمه عرفتْ ما اتفقَ الملكُ وزوجه عليه فى أمر قتله ، فأخبرتْ أمَّه وَأمرتها أنْ تذهبَ إليه فى حُجْرته قبل أن تذبحه الجارية ، وَلما استيقظ قال لأُمه :

لقد جئْتِ فى أطيبِ الأوقاتِ ، إذ وَجدتِ الجارية باكون عِندى . والتفت إلى الجارية قائلًا : حدِّثينا حديثاً طَريفاً ، وَأَسمِعِى أُمى أحسنَ ما عِندكِ من القِصص حتى تطرَبَ ، وينشرحَ صدرُها .

فقالت : لقد تعبتُ الليلةَ وفى وَقتٍ آخر سأُحدثكم أحسن ماسمعت ، وتلهفت على الخُروج لأنها ظنَّتْ أن أُمَّه عرفتْ ما كانَتْ قادمةً من أجله ؛ فلما خرجَت الجارية من الحجرة قالت له أُمه :

حَمدًا لله الذى نجَّاكَ بقدومى من هذه الجارية الملعونة الغادرةِ ، فقد جاءتك الليلة لتقْتُلكَ طوْعاً لأمرِ الملك سليمان الغادر ، وَما أنقذكَ إلَّا ابنةُ عمك ، فهى التى أمرتنى بالقدومِ إليك هذه الساعة حتى لا ينفذَ فيكَ سهم الملك على يد جاريته ، ولو أبطأتُ عنك قليلًا اقُضى الأمر ، وكنت الآن مذبوحاً على فراشك .

فقال : من كُتِبَتْ له الحياة لا يضره كيدُ الكائدين ، ولا مكر الماكرين ، ولا يناله إنسٌ ولا جانٌّ ؛ وَمع هذا فعلى المرء أن يأخُذَ حِذْرَه ويدفع عن نفسِه بقدرِ ما مَلَكتْ يمينُه من قوَّة ؛ فإن لم يستطعْ دفاعاً فأرضُ الله واسعَةٌ . وَأرى أن نغادر هذه المدينه الظالم ملكها ، والذى لا يُريحه إلا هلاكُنا ، واللهُ بعد ذلك يخلُقُ ما يشاء ويختار . وخرج من

المدينة صباحًا إلى حيث التقى بالوزير دندان ، وبلغه كلَّ شيء كان .

أما نزهةُ الزمان فقد غَضِبَ الملكُ عليها لأنها أخفقَتْ فى تدبيرها ، ففرَّتْ هى وابنتُها إلى حيث اجتمعتا بالوزير دندان ؛ وهناك تشاوروا فى جمع من الكبراء فيما يَفعلون . فأجمعوا رأيهم على أن يذهبُوا لغزو الروم ثم يعودوا أقوياء بما غَنِموا إلى سليمان فيحاربوه ، ولكنَّ الروم هزمت جندهم ، ووقعُوا هم أَسرى فى أيديهم ، وَأمر رومزان ملكُ الروم أن يَحضروا بين يديه ، فلما حضروا قال لهم : ما دَعوتكُم إلا لأقصَّ عليكم رُؤْيايَ التى قصصْتُها على الرهبان فلم يَعْرِفوها ، فإن عرَفتم تَأويلَها عفَوْتُ عنكم ، وإن لم تعرفوا تأويلَها أطَحْت برءوسكم .

فقالوا : لا يَعرِفُ تأويلَها إلا الوزير دندان وَأمر بإحضار طعامٍ لهم فأكلوا حتى شبعوا وهو يتحدث إليهم ويؤنسهم ويذهبُ الخوف عن أنفسهم ، ثم قال الوزير دندان :

أرجو أن تكون رؤياكَ خيرًا إن شاء الله تعالى .

فقال : رأيتنى فى حفرةٍ كأنها البئرُ ، ويقوم قومٌ بتعذيبى فيها ، وكلما نهضْتُ قائمًا وحاولتُ الخروج منها قَعد بى عَجْزى وضَعُفتْ قُدرتى ، ثم وقع نظرى فيها عَلَى منطقةٍ من ذهب ، فلما تناوَلتُها وجدتها مِنْطقتين ، فشددتهما حول وسطى ، فإذا هما منطقة واحدة . وهذه رؤياى .

فقال الوزير : لكَ أخ وابن أخ أو ابن عم أو أحدٌ من أهلك . فلما لم يفهم شيئًا من هذا التفسير أمر بضرب أعناقهم حتى يستريح منهم .

ولـكن القابلة دخلت عليه مسرعةً وقالت بلسانها الرومى :

كيف تأمر بقتل أخيك وأختك وابنة أختك ؟ !

فقال : كيف تقولين ذلك وَأنت تعلمين أن أمى قُتلت وأن أبى مات مسموماً ، وَأعطتنى خرزة كانت لأبى ؟

فقالت : ما أخبرتك إلا صدقاً ، وسأقصُّ عليك من أمرك ما لم تـكن تعلم . أنا مرجانة جارية والدتك إبريزة ، التى عُرفتْ بالجمال والشجاعة ، وأبوك عمر النعمان ملكُ بغداد . وأخذت تقص عليه قصة إبريزة أمه ، وشركان أخيه ، وحادثة أبيه مع أمه ، وقتلها على يد العبد الأسود بعد ولادته ، وكفالة جده له ، وكان الأسرى على مسمع من قول الجارية ، فصاحت نزهة الزمان قائلةً :

أنت أيها الملك رومزان أخى لأبى، وأمك إبريزة بنت الملك حردوب، وهذه الجارية مرجانة من جوارى أبى ، فدهش الملك وأمرها أن تقص عليه ما تعلمهُ من حديث الجارية مرجانة .

فعززت بقصتها ما قصَّته الجارية ، فحنَّ إليها حنين الأُخوة ، وعفا عنهم جميعهم ، وَأَلَّفَتْ بينهم القرابةُ والمحبة ، وَأصبح رومزان عمًّا لـكان ما كان . وَأسرعت قَضى فـكان إلى جنود الوزير دندان فبشَّرتهم بما كان من تعارفٍ وألفةٍ وَوِئام .

ثم جلسوا يتشاوَرون فى أمرِ الملك سليمان فاختاروا أن يكون وَالياً على دمشق ، وَأراد كان ما كان أن يتنازل عن ملكه لعمِّه رومزان ، فلم

يقبَل ، فأَشار الوزير دندان أن يكونَ ملكُهما وَاحِدًا ، على أن تكون ولايتهُ دولة بينكما ، كل منكما يتولى أمره يوماً ، ونفذوا ما اتفقوا عليه ، وَدامت هذه الحالُ مدةً من الزمان .

وذات يوم جاءهم تاجرٌ يشكو ما أَصابه من هجوم عصابةٍ من العرب على قافلتِهِ ، وَنهبهم أموالَه وبضائعه . فخرجوا بجنودهم يقودُهم التاجر إلى مكان الحادثة ، وَهناك ردُّوا إليه أَمواله وأسروا العصابة وكان عدد رجالها ثلاثمائة ، ثم ساقوهم إلى مدينة بغداد . وَهناك أحضروهم بين أيديهم ليتعرفوا أحوالهم ، ويسألوهم عن أَعمالهم وكبرائهم ، فقالوا :

إنَّ كبراءنا ثلاثة وَهم الذين جمعونا من بلادنا ، وَساقونا إلى ما فعلناه ؛ فأطلقوهم من أَسرهم ، وخلُّوا كبراءهم . وكان هذا التاجر هو الذى اشترى نزهة الزمان وباعها إلى أخيها شركان . فأَخرجَ كتاب شركان وكتاب نزهة الزمان الخاصين بإعفاء بضاعته من الرسوم ، وناول كان ما كان إياهما ، فكان ذلك سبباً فى إكرامه ومنحه أموالاً كثيرة من نزهة الزمان وَالملكين وَأَمرت نزهة الزمان أَن يحضر إليها ، فعرفته بنفسها وذكرت له سالف معروفه ، وجميل عطفه ، ففرح وهنأها بسلامتها ، وكشفِ الضر عنها ، ثم رحل ببضاعته كاملة إلى الشام .

أحضر الملكان كبار اللصوص الثلاثة لمحاسبتهم على ما كانوا يفعلون من إزعاجِ الأمن فى السُّبلِ ، ونهبِ أموال التجارِ والقوافل ، فقال أَحدهم :

إنى رجلٌ بدوىّ ، قضيتُ مُدةَ عُمرى فى خطفِ الأولاد ، من بنين وبنات ، وبيعهم للتجار ، ثم اتفقتُ أنا وهذان الرجلان على أن نجمع اللصوص ، ونُكونَ عصبةً تعترض السابلة ، وتنهبَ أموالهم ، ولى فيما كنتُ أفعلُ حوادث عجيبة . فرغبوا أن يسمعوا شيئاً من حوادِثه ، وأمروه أن يذكر لهم أعجب شىء فعله فى خطفهِ الأولاد ، فقال :

منذ اثنتين وعشرين سنة خطفْتُ بنتاً من مدينة بيت المقدس فبكتْ بكاءً حارًّا يذيبُ المرائر ، وكنتُ كلما بكتْ أوجعتها ضرباً ، وهى لا تنفكُّ تبكى ، وأنا لا أسكتُ عن ضربها وإيذائها ، ثم كرهت مُقامها عندى ، فبعتُها لتاجرٍ كساها وجمَّلها ، وباعها لشركان وَالِى دمشق ، ونال منه ربحاً عظيماً ، ولا يزالُ بكاؤُها الحارُّ عالقاً بنفسى حتى الآن لأنها كانتْ تبكى على أخ لها فى بيت المقدس ، ولما بعتُها أغرانى الطمعُ فى المال أن أرجعَ إلى بيت المقدسِ لخطفِ أخيها و بيعه فلم أجدْه . وهذه الحادثة أعجبُ ما رأيتُه فى حياتى .

فلما سمعت نزهة الزمان قصتَه أخبرت أخاها ضوءزان أن هذا البدوى هو الذى خطفها ، وفرّق بينها وبين أخيها ، وَحكت له ما لقيته هى وأخوها فى بيت المقدس من مرضٍ وعناء وجُوع وَبلاء .

وهمَّتْ بقتله ، فطلبَ إليها أن تُمهلَه حتى يذكر لهم حادثةً أُخرى من حوادثه العجيبة ، وأمرُوه أن يقصّ عليهم حادثةً أُخرى فقال :

أرقتُ ليلةً وما جاء صباحُها حتى تقلدتُ سيفى ، وَخرجت إلى

الصحراء أبتغى الصيد ، فالتقيتُ بجماعة فيها وأخبرتُهم بقصدى ، فقالوا : ونحنُ معك ورفقاؤُك فيما تبتغى ؛ وبينما نحن سائرون رأينا نعامةً ، فذهبنا لصَيدها ، ففرَّتْ مسرعةً ، فجرينا خلفها ، وما زالتْ تجرى ونحنُ وراءها حتى أَلْقَتْ بنا فى بَرِّيَّةٍ لا نبات فيها وَلا ماء ولا نسمعُ فيها إلا فَحِيحَ الأفاعى ، وصَيحاتِ الجان ، وصراخ الغيلان ، ثم اختفت عنا ، ولا ندرى أينَ ذهبتْ ، فلَوينْا رُءوس خُيولِنا راجعين أدراجنا ، وكان الحرُّ شديدًا ، وأحْسَسْنا عطشًا ، فرأينا على بُعد مَرْجًا به غزلان تمرَحُ ، وفيه خيمةٌ مضروبة ، أَمامها حصان ورُمح مركوز يلمعُ سنانه ، فذهبنا إلى هذا المرج نبغى الماء والراحة ، فلما أتيْناه وشربنا من عَيْن فيه قصدتُ تلك الخيمة فوجدتُ فيها شابًّا جميلًا ، وعن يمينه فتاةٌ هيفاء حسناء ، فأَحْببتها وَأصررْتُ على أخذِها بأية وسيلة ، ولما سلّمت عليه سألته :

من أنْتَ ؟ ومن تكون هذه الفتاةُ الجالسة بجانبك ؟

فأطرق قليلاً ثم رفع رأسه وقال: ومن أنتَ؟ وما هذه الخيل التى تصحبك؟

فقلتُ أنا حماد الفزارى الفارسُ الجبار ، وهؤلاء جماعةٌ خرجنا للصيد فأدركنا العطشُ فجئنا نستقى من عين هذا المرج ، وقد جئْتُ إلى هذه الخيمة لأقِفَ على خَبرِها ، ولأبتغِى فيها زادًا .

فالتفتَ إلى الفتاةِ وأمرها أن تُحضرَ ما لَديها من طَعام . فقامت كأنها الغُصن الرَّطيب ، تجرُّ أذيالَها ، وتتَعثرُ فى شعرِها وتَرن الحُلى فى يديْها ورِجْليها ، وغابت قليلاً ثم جاءتْ وفى يدها اليمْنى إناء من فِضَّة مملوء ماء

باردًا ، وفي يدها اليُسرى قدح به تمر ولبن ولحم ، فلما أكلتُ وشربتُ قلت للشاب : لقد عرَّفتك بنفسي وجماعتي فعرفني بنفسك ومن معك .

فقال : ليس لك عندي إلا أن تعرفَ أني شابٌ ، وهذه أختي ، وتلكَ خيمتُنا ، ضربناها حيثُ أحببْنا المُقام .

فقلتُ : ليسَ لي عندك أكثر مما ذكرْت ، فزوجْني أختك هذه وإلاَّ قتلتُك ، وأخذتها قهرًا .

فقال : لقد عرَّفتني أنك فارسٌ ، وهؤلاء الفرسان رُفقاؤك ، فإن كنت صادقًا فيما قلتَ فأمهلني حتى أتقلد سَيفي ثم أبارزكم ، فإن ظهرْتم عليّ وظفرتم بي فلكم ما تشاءون .

فقلت : ذلك حق ، وسأمهلك حتى تلبسَ عدة حربك ، ثم انصرفْتُ إلى أصحابي في انتظار خُروجه للمبارزة ، وأخبرتُهم بما دار بيننا من الحديث ووعدتُهم أنَّ من قتَل هذا الشاب فلَهُ أُخته ، وجعلتُ أصِفها لأصحابي حتى أشعل الحماسةَ في صدُورهم ابتغاء الحُصول عليها ، ثم ذهبوا لمبارزته فوجدُوه قد استعد للقائهم بعد أن وَدّع أُخْته راجيةً عودته ظافرًا ، فقال لهم :

أيها الفرسان ، إنْ كنتم تُريدُون القِرَى أمددناكم بما تَشْتهون ، وإن كنتم تُريدون القِتال فلتبرزوا إليَّ وَاحدًا واحدًا ، واللهُ معنا يؤيدنا بنصرٍ من عنده .

فتقدم إليه فارسٌ فقتله ، وجاء الثاني فقتله ، وهكذا حتى قتل أربعة فرسان .

ثم أقبل عليَّ وأمسكني بيده ، وجعل يُطوحُ بى عالياً نازلاً كاللُّعبة، وألقانى على الأرض بقوة ، وهمَّ أن يضربَنِى بسيفه، فتعلقتُ بأذيال ثوبه ، وضَرعتُ إليه أن يَعفُو عَنى ، فأعرضَ عن قتلِى ، وأمر أختهُ أن تَسُوقنى إلى خيمتِه مقيدًا ، وجلسَ عَلَى كرسى من العاج بعد أن نزع عنْه عدةَ حربه وأحضرت له أختُه الطعامَ فَرحةً بنصره ، ودعانى إلى أن آكل مَعه ، فكان ذلكَ مبعث اطمئنانٍ عَلَى نفسى ، فأكلْنا وشربنا أقداحاً من المدام، وأنا فى عجَبٍ من جمال أُختِه ، وصَغارٍ مما أنا فيه من أسر وهزيمة ؛ وقال لى :

يا حماد ، أنا عابدُ بن تميم بن ثعلبــة ، وقد وَهَب اللهُ لك نفسَك ، وَاستجاب إلى رَغبتِك فى زوَاجك ، ثم طلب إلىَّ أن أعاهده عَلَى أنى لا أخونهُ ، وَأن أكونَ عوناً له ما دمتُ حيًّا ، فعاهــدته وأعطيته المواثيق عَلَى ذلك ، وأمرَ أُختَه أَن تمنَحَنى خِلَعًا حريرية ، وتحفاً ثمينة ، وَمكثتُ فى ضيافته مُكرماً ، وبعد ثلاثةِ أيام قال لى : سأنامُ قليلاً للراحة، وإن رأيتَ خيلًا مقبلةً فلا تفزَعْ فإنها قادمة لحربى .

ثم توسد سيفَه وغرق فى نومه ، فوسْوَسَ إلىَّ الشيطان أَن أَقتلَه فقتلْتهُ ؛ ولما جاءت أُختُه ورأتْ ما فعلتُه بأخيها قالت : كيفَ تغدرُ بأخى وتقتلُه بعد أنْ عفا عنْكَ ووَهب لَكَ حياتك وأكرمكَ ؟ ! وقد كان عازمًا عَلَى أَن يزوجنى منك آخر هذا الشهر . ثم ركَزَتْ سيفَها فى الأرض وجعلتْ ذبابَتَه فى بَطنِها وتحاملَتْ عليه فخرجَ من ظهرها ، فندمتُ

حيث لا ينفعُ الندم ، وحملتُ من الخباء ما استطعتُ حمله ورجعتُ مسرعاً مخافة أن يلحقنى أحد .

وما فرغَ من قصته هذه حتى أعجلته نزهة الزمان بضربةٍ قطعتْ عُنقه .

ثم تقدمَ الثانى وكان العبدَ الأسودَ فقصَّ عليهم قصتَه مع إبريزة بنت حردوب وقتله إياها فأعجله رومزان بضربةٍ من سيفه أطاحت رأسَه .

ثم تقدم الثالث وكان الجمالَ الذى اكتراهُ أهلُ بيت المقدس لحمل ضوء المكان إلى دمشق فرماه فى المستوقد ، وما أتم قصة حمل ضوء المكان حتى قام كان ما كان وضربه بسيفهِ ضربةً فصلتْ رأسَه عن جسْمِه .

ثم قال بعضُهم لبعض : لم يبقَ أمامنا إلاَّ قتل العجوز ذات الدواهى التى كانت سبباً فى هذه المصائب ، فقال رومزان :

سأكتبُ إليها بالحضور — وكانت جدته — فلما حضرت هى والملكة صَفية أم نزهة الزمان إلى بغداد — وكان قد أشار عليهم رومزان أن يلبسوا اللباس الأفرنجى حتى تأمَن العجوز جانبَهم — وما كادتْ تصل إليهم وتسلِّمُ عليهم حتى قيدُوها وربطوها على جمل ، وطافوا بها فى المدينة ، والأولاد من حولها ينادون : العجوز الخائنة !! العجوز الخائنة !! ثم قتلوها وصلبُوها جزاء خيانتها وغدْرها ، ولما رأى أصحابها الذين حضروا ما فعلَ بها أسلموا جميعهم وفرِحت صفية بابنتها نزهة الزمان ، وعاشوا جميعهم فى أنعم بال ، وأهنأِ حال .



علي بن بكّار وشمس النهار

(١)

كان في عهدِ هارون الرشيدِ شابٌّ تاجر، يُدعى أبا الحسن عليّ بنَ طاهرٍ، وكان غنيًّا كريمًا، كثيرَ العطاء والإحْسان، مَنحهُ اللهُ جمالاً في الخُلقِ وحلاوةً في اللسانِ؛ لذلك أحبَّه كلّ من نظرَ إليه أو سَمِع حَديثَه، وكان ينادِمُ الخليفةَ، ويُسمِعُه نوادرَ الأخبارِ ولذيذَ الأشعار، يدخلُ قصر الخلافةِ من غيرِ إذنٍ، ويحبُّه خدَمُه وجَواريه، وهو إلى ذلك يتجرُ في دكانه بسوقِ التجارِ بمدينةِ بغداد.

اعتادَ أن يجلسَ عندهُ في دكانهِ شابٌّ من أبناء ملوك العَجم، يسمَّى

عَلِيّ بنَ بكار ، وهُوَ جَميلُ الصورة ، ضاحكُ الوجْه يألف السرور ويحبُّ الضّحك .

وبينما هُما جالسان حسبَ عادتهما فى الدكان ، إذا بعشر جوارٍ جميلات مُقبلات ، ومن بينهنّ فتاةٌ فوقَ بغلةٍ وكان سَرجها من ذَهب ، ومُلاءتُها من حريرٍ ، يزينُ وسَطها زنّار حَريرى مطرزٌ بالذهب ، وكانت الفتاةُ جميلةً فاتنة ، يشعُّ السحرُ من عينيها ، ذات صوتٍ رخيم ، ومَنطقٍ عفّ سليم .

وقفت الجوارى أمام دكان أبى الحسن ، ونزلَت الفتاة ، فسلمت عليه سلاماً ملأَتْ رقتُه الأسماع والأفئدة ، فردَّ عليها السلامَ فى بشاشةٍ وحفاوَة . ثم جلستْ .

رأى علىُّ بنُ بكار جَمالها ، وسَمِع سلامَها ، فطارَ عقلهُ هُياماً بها ، وخشِى — إن هو أطال الجلوس معها — أن يُفلتَ زمام عينَيه ، ولسانِه وشفتيه ، ويخرجَ عن حيائِه وأدبه ؛ فهمَّ بالقيامِ هرباً من تلكَ الورطة التى يخشاها ، فقالت له : اجلس كما كنت ، فليس لك أن تترك صاحبَك من أجلِ حُضورنا ، وربما كان فى ذلك إهانة لنا .

فقال : عجّلت بالقيام لأنى لم أستطع احتمال ما أصبحت فيه ، وليس لى قدرَة على تحقيق ما أبتغيه ، ولا إخالُك إلا شَمْساً فى سماءٍ من سُمُوّ ورفعةٍ ، وبهاء ومنعة ؛ وليس يصحُّ فى ذهنِ إنسانٍ أن تنزل إليه الشمسُ من سمائها ، أو يصعد هو إليها إلا إذا رآك ، وعزاء للفؤاد إذا تعلق بما لا يُنال . فكيف لا أعجِّل بالقيام وقد عجزت عن نيل المرام ؟ !



علي بن بكار يجلس بدكان أبو الحسن ، وقد أقبلت شمس النهار
على بغلة تحيط بها جواريها

فابتسمت الفتاةُ ابتسامةً أضاءتْ لها وجُوهُ الجالسين ، وتفتّح لها قلبُ ابن بكارٍ ثم قالت لأبي الحسن أتعرفُ هذا الفتى ، الذى أعجبنا حديثه ؟

فقال : هذا غريبٌ ، وإكرامُ الغريبِ نُبلٌ وفضيلة .

فقالت : وما اسمُه ؟ ومنْ أين هو ؟

فقال : عليّ بن بكار ، من أبناء ملوك العجم .

فقالت : وَجَب علينا أن نُكرِمَه ، فإذا جاءتكَ جاريتى فاحضرْ أنت وهو معها إلى بيتى ، ولَعَلّى أقومُ بما أستطيعُه من كرمِ الضيافة .

فقال أبو الحسن : ذلك شرفٌ لنا ومَسرّة .

ثم قامتْ إلى شأنِها . وجاءت الجارية بعدَ مدةٍ غير طويلة فقالت لأبى الحسن :

سيدتى تدعوك ورفيقَك الآن إليها .

فقاما مُسْرِعَيْن مَعها حتى كانوا أمام قصرٍ من قصورِ هارون الرشيد ، فأدخلتْهُما الجاريةُ ، فى مقصورةٍ منْ مقاصيرِه ؟ بها سماطٌ فاخر ، صفّتْ من حوله كراسىّ من خشبٍ مرصّع بالجواهر ، وبعد قليل وضعتْ على السماطِ أصنافاً شهيةً من الطعامِ والشراب ، ولما أكلا وشربا أخذتْهما إلى مقصورةٍ أخرى فسيحة ، ذات أعمدةٍ أربعة ، وفرشٍ حريرية منمقَة ، وتحفٍ موضوعة منسّقةٍ . وأرائك مصفوفة . وبينما هما فى عجبٍ منْ فخامة المقصورة وما فيهاَ ، إذ أقبلتْ عشرُ جوارٍ تُشرقُ بينهنّ تلك الفتاةُ ، وتختالُ فى وشاحٍ من فاضل شَعرِها ، وإزارٍ حريرىٍّ فضفاض ،

وزُنّارة مرصعة باللآلئ ، فجلست على أريكةٍ من الأرائك مُحَبَّبة ، وأمرت الجواريَ أن تجلس كل واحدةٍ على أريكتها ؛ وبدت شمسُ النهار قمرًا وسط عقدٍ من نجومٍ زواهر ، فدهش ابن بكار وقال لأبى الحسن :

ذلك بدء سقامٍ لى ولَوْعة،لا يذوقهما إلا من كابدَ الصبابة ، وكان عليك أن تخبرنى قبل حضورى عن هذا الذى نراه الآن ، حتى لا أفاجأ بهذا الجمال وهذه الأبهة .

فقال أبو الحسن : خشيتُ أن يَعظُمَ أمرها فى نظرك ، فيلحقك يأسٌ من وصالها ، ولا تصحبنى إلى زيارتها ، ولكن أبشرُك بوصلٍ سعيد ، وصحبةٍ حميدة .

فقال : ومَنْ تلك الفتاة ؟

فقال أبو الحسن : جاريةٌ من جوارى هارون الرشيد ، ومحظيَّة من محظياته ، وهذا القصر الذى يحويها قصرُ الخليفة ، وهذه الجاريةُ تسمى شمس النهار .

ثم أمرت جواريها أن يُغنِّين ، فأمسكت إحداهنّ العود وغنتْ فأطربت وفتنَت ؛ فانتعشَ ابن بكارٍ وخرج عن صمته وقال :

زيدينى من هذا الغناء ، زادكِ الله من نِعَمه ،

فغنت وأجادتْ .

ولما انتهت أمرت شمسُ النهار جاريةً غيرها أن تغنِّى، فغنَّت وأبدعتْ، واستخفَّ الطربُ علىّ بن بكار فالتفت إلى جاريةٍ قريبةٍ من مجلسه

وقال : غنِّى أنتِ أيتُها الجارية ، فغنتْ على الفورِ وأعجبتْ .

وكان على بن بكار قد ظهرت عليهِ آثارُ الحبّ والهيام ، وعرفتْ ذلك منْ شكله شمسُ النهار فقالت : إن الأرواحَ جنود مجنَّدة ، ما تعارَفَ منها ائتلف ، والتفتت إلى أبى الحسن وشكرت لهُ معروفه لديها ، إذ كان سبباً فى اجتماعها بابن بكارٍ الذى أحبته لأول نظرة ولقاء . ثم التفتَت إلى علىّ بن بكار وقالت :

لا يبلغُ الحبُّ فى قلبك غايةً إلا بلغَ فى قلبى أضعافَها ، وليسَ لنا إلا الصبرُ الجميلُ حتى يجمعَ الله شملنا على شريعته، فأقم وجهك للدين حنيفاً، ولا تكن من القانطين .

فقال ابن بكار : لقد أصبحَ حبِّى إياكِ فى لحمى ودمى ، ولن يفارقنى مادمتُ حيا .

ثم ظهرتْ على أعينهما دموعُ الهوى ، فقالَ أبو الحسن :

عجبت لكما تبكيان وأنتما مجتمعان ، فكيف حالكما وأنتما مفترقان ؟!

ثم عاد مجلسُ الغناء إلى أحسنَ مما كان عليه .

(٢)

وبينما هم غارقون فى غنائهم وطربهم إذ أقبلتْ جاريةٌ ترتعشُ خوفاً وتقول : سيدتى ، أقبلَ أمير المؤمنين ، وهو الآن بالباب ، ومعه عفيفٌ ومسرورٌ وغيرهما؛ فأخذتْهم جميعهم حيرةُ خوفٍ وفزع ، ولكن شمسَ النهار ضحكت وقالت : لا تخافوا :

ثم قالت للجارية القادمة : تحدثى إلى أمير المؤمنين بما تشائين ، وبمقدار ما تتحول إلى غير هذا المكان . وأمرتْ أن تُغلق أبواب المقصورة على أبى الحسن ورفيقه ، وخرجت هى وجواريها إلى البستان ، وجلست فيه على سريرها ، وجعلت جارية من جواريها تمسح بيدها على جسمها وأرجُلها ، وسرَّحتْ بقيةَ الجوارى ، وتركت بابَ البستان مفتوحاً ، فيدْخل عليها الخليفة وهى على هذه الحال .

دخل مسرورٌ ومن معه ، بأيديهم سيوفهُم ، فسلموا على شمسِ النهار ، فردت عليهم سلامَهم وقالت :

لِأى شيء حُضوركم ؟

فقالوا : يُسلّم عليك أميرُ المؤمنين ، ويُحبّ أن يختتم سرورَه بوجودِكِ معه ، فهل يأتى إليك هنا ، أو تذهبين إليه هناك ؟

فقالت : سمعاً وطاعة لأمير المؤمنين ، َبلغوه أننى فى انتظاره ، بعد أن أهيئَ المكانَ لحضرته ، فإنى أعرف أنه يحبّ أن يقضى هذا الوقت فى بستانه .

ثم دخلتْ شمس النهار عَلَى ابن بكارٍ وقالتْ : إنما جئتُ فى أحرج مواقفى لِتَوديعك والاطمئنان على خروجك من القصرِ سالما .

فقال : لئن سلمتُ بالخروج فلستُ سالما من الهوى .

فقالت : ستجدُ فى الناس من يُسلّيك ، ولكنى سأحملُ آلامَ بُعدِك ، وأحترق بنار الشوق إليك ، ولا أدرى كيف يحلُولى الغناء فى مجلس الخليفة ،

وليس فيه حبيبُ الروح وأملى فى الحياه ، وأخشى أن يلحقنى الاضطرابُ فى حفلة الطرب التى دعوتُ إليها الآن أمير المؤمنين ، فيرى منى قلقاً فى النفس ، وتغيّرًا فى المزاج ، وضَعفا فى الغناء بسبب غيابك عن هــذه الحفلة ، فيكون فى ذلك شقائى وعقوبتى .

فقال أبو الحسن : اعْتصمى بالصبر ، واكْتُمى هواكِ فى صدرِك ، وأجيدى المرح والغناء حتى يجعلَ الله لكما مخرجا .

وسمعتْ شمس النهار جارية تقول :

ظهرت غلمان أمير المؤمنين .

فنهضتْ خارجة وقالتْ للجارية : اذهبى بهما إلى روْش القصر المطلّ على البستان، وأغلقى عليهما الباب حتى يأتى الظلام ، ثم احتالى فى خروجهما سالمِيْن ، وكانا يريان مَنْ فى البستانِ ولا يراهما أحد .

حضر الخليفة وأمامه مائة خادم سيوفهم بأيديهم، ومنْ حوله عشرونَ جارية كأنهنَّ الأقمار ، يَرفُلْن فى ملابسَ من فاخر الحريرِ ، وعلى رءوسهن تيجانٌ مرصعةٌ باللآلئ ، وفى أيديهن شموع موقدة ، فاستقبلته شمس النهار وجَواريها بباب البستان ، ومشى هــذا الموكبُ حتى جلس على السرير، ثم أمرهم بالجلوس ، فجلسَ كلٌ على سَريره ، وجلست شمس النهار بجوار سرير الخليفة ، وجعلتْ تتحدثُ إليه على مرأى من أبى الحسن ورفيقه ابن بكار ، وأوقدت المصابيحُ فجعلتْ ليلَ البُستانِ نهارا ، وكان ابن بكار يقول لصاحبه :

أخشى أن يرانا الخليفـةُ فيُصيبك الشرُّ بسببي ، وأكثرُ خوفي عَليك ، أما أنا فالحيـاةُ والموتُ عنـدي سواء ، ما دمتُ بعيدًا عَنْ شمس النهار .

التفت الخليفةُ إلى شمس النهارِ وقال: هاتِي ما عندكِ يا غَرام ، فجعلتْ تُغَني وهي مأخوذةُ اللبِّ ، حتىّ وقعتْ في غشيةٍ من لوعةِ الفراقِ والشوقِ ، فرآها على بن بكارٍ فتأثّر وعلاهُ فتورٌ كأنه الغشْيَة ، فقال أبو الحسن : لقد قسم الغرام بينكما بالسّوية .

ثم سَمع الجارية التي جاءت بهما إلى الروش تقول :

انهض يا أبا الحسن أنت ورفيقُك للخروج مُسْرِعَين ، قبلَ أنْ يَظهر الأمرُ فيجلب الضر .

فمشَيا إلى باب صغير، فخرجا منه إلى زَورق حملَهُما إلى الشاطئ الآخر؛ ولكن ابن بكارٍ لا يزال قلبُه مُعلقًا بالقصرِ ومَنْ فيه .

كان قد مضَى قليلٌ من الليل ، فقال أبو الحسن لرفيقه :

نحنُ على هذا الشاطئ في مكانٍ نخافُه على أنفُسِنا . ولي فيه أَصدِقاء ، فهيا بنا نبيتُ الليلةَ عند أحدهم .

فقال ابن بكارٍ : نِعمَ الرأي .

ثم طرقَ أبو الحسن باب صديقٍ يثقُ به ، فاستقبلهُما بالترْحابِ والبشر، وجَلسَ معَهُما في حُجرةِ الانتظار، ثم سألهما :

أينَ كنتُما في هذا الوقت من الليل ؟

فقال أبو الحسن : لى مالٌ عندَ أَحدِ التجار ، وقد بلغنى أنه مسافرٌ من هذا المكان الليلة ، فجئتُ لمقابلته قبلَ سَفره ، لعلى آخُذ منه شيئًا من مالى ، وأحضرت مَعى صديقى علىّ بن بكارٍ لمرافَقتى ، ولكنى لم أجد التاجر ، وقد منعتْنا من العودَةِ ظلْمةُ الليل ووحشَتُه . والخوفُ من الطريق ومتاعبِه ، فجئنا لنبيت الليلة عندك ، ثم نرجع إلى بيوتنا فى الصباح .

فقال : أهلاً وسهلا ، ولقد سعدتُ الليلةَ بتشريفكُم ، ثمَّ أكْرمهم وأحْسَن مَبيتَهم ، وفى الصباحِ رجعا ، فَعادَ أبو الحسن إلى العمل فى دكَّانه ، وأما علىّ بن بكار فقد حبسه الحبُّ فى بيتهِ ، يقاسى آلامه وأسقامَه .

وبينَما أبوالحسن يبيع بدكانه لزبائنه ، جاءته جارية شمس النهار وقالت له : سيدتى تحيِّيكَ وتسألُ عن سيدى على بن بكار .

فقال : وتحيتى إليها ، حالُه عجيب ، فقدْ قعَد فى داره ، ولزمَ فراشه ، وصارَ لا يفكرُ إلا فى سيدتكِ . وكيف حالها ؟

فقالت : حالها أكثر عجبًا ، لقد فارقها المرحُ الذى كان يُصاحبُها فى قيامِها وقُعُودها وحديثها ، وفى الليلةِ الماضية ، وفى حفلةِ الغناء التى حضرها هارون الرشيد أُغمِىَ عليها ، وهى الآن مريضةٌ بسبب الفراق ، وترجو منك أن ترشدنى إلى مكانه ، لأكون رسولاً بينها وبينه .

فأقفل دكانَه وذهب معها إلى بيته ، فانتعش لحضورها وانتظرَ قولَها فقالت : سَيدتى ترجو لكَ السلامة وتحبُّ أن تراكَ وتطمئن عليك :

فقال : أرجو لها كل عافية ، وأتمنى أن تكون معى ليلًا ونهارًا ، ولكن



جاريتا شمس النهار ، تودعان على بن بكار وأبا الحسن
بعد أن أخرجتاهما سراً من قصر الخليفة

ليس لى حيلة ، وفى يدها إنقاذنا من هذه الآلام بالزواج الذى شرعه الله ، وجعله وسيلة لكثرة النسل وعمارة الأرض ، وارتباط الناس بعضهم ببعض .

فقالت : سأخبرها بذلك .

ثم انصرفت .

ولما بلّغت الجارية سيدتها ما سمعت من علىّ بن بكار قالت :

طلب ابن بكار ما فكرت فيه ولم أجد له حلاً ، فإنى محتارة بين أن أستجيب لحبى ، وأن أستمر فى وفائى لقصرى ، ولعل الله يوفقنى إلى حل يحقق رغبتى ، ولا يمس وفائى ، ولا تزالين رسولاً بينى وبينه ، إلى أن يقضى الله فى أمرى وأمره .

(٣)

وكان لأبى الحسن صديق يتجر فى الجواهر ، أطلعه على ما بين ابن بكار وشمس النهار ، وكان هذا الصديق يزور أبا الحسن فى دكانه كثيراً وذات مرة قال لصديقه هذا :

أنت تعلم أن شمس النهار قد اتخذت جارية من جواريها كاتمة سرّ لها ، ولا تزال بعونى تتردد بينها وبين ابن بكار ، وأنا رجل تاجر معروف ، وأخشى أن يلحق الجارية قلق أو ضجر ، فتفشى سرّ سيدتها ، فيلحقنى بسبب ذلك ضرر فى نفسى ومالى ، وقد عزمت على أن أرحل إلى البصرة ، وأقيم فيها أياماً وأسابيع ، حتى أنجو من هذا الخطر الذى يحيط بى ، فما رأيك ؟

فقال :

ذلك رأيٌ حَسَن ، فإن المثل العامّى يقول : « ابعد عن الشر أوْ غنّى له ولا تقنّى لهُ » .

وبعدَ يوم كان أبو الحسن مرتحلاً إلى البصرة ، وفى رابع يوم من ارتحاله جاء صديقُه إلى دكانه فوجده مُقفلًا ، ولما سأل عنه قيل له : إن له أموالاً وديونًا بالبصرة ، وقد سافرَ إليها ليُحْضِرَ شيئًا من مالِه ، وربما لا يغيبُ هُناك كثيرًا .

كره صديق أبى الحسن أن يكون ابن بكار محرومًا من صديقٍ يواسيه ويُسَاعِدُه ، بعد أن ارتحل أبو الحسن وفارقه ، فعزم على أن يكون خلفًا له ، يُعِينُ ابن بكّارٍ فى شِدَّتهِ ، وذهبَ إليه فى بيتِهِ ، ليعقد صِلة صداقة بينَه وبينَه ، وكان كلٌ منهما يعرف الآخرَ ، فلما جلس إليه قال :

لم أُقابل صديقنا أَبا الحسنِ مُنذ أَربعة أَيام ، وقد جئتهُ اليومَ فوجدتُ دكانه مُقفلاً ، فسأَلت عنهُ فقيل : إنه سافرَ إلى البَصرةِ ، وأَنا أَعلَمُ منه أنك أَوفى أَصدِقائه ، فقدكان لا يكتمُ عَنِّى سِرَّه ، وقد جئتُكَ الآن لتخبرَنى بخبرِه .

فظهرَ عَلَى وجه ابن بكّار علاماتُ الألمِ والاضطراب ، ثم نادى غلامًا له وأَمرَهُ أن يذهب إلى دارِ أبى الحسن ويأتيَهُ بخبرِه .

ولما رجع الغلامُ قال : سأَلتُ عنه فقيل إنه سافرَ إلى البصرة ، ولا يعلمُ أحدٌ موعدًا لعودته ، وقد وجدتُ على باب بيته جاريةً واقفة ، عرفتنى ، ولكنّنى لم أعرِفها فقالت لى : أَلست غلام عَلى بن بكّار ؟

فقلت : بلى ! !

فقالت : إنى ذاهبةٌ معكَ إليه ، لأبلغَه رسالةً من عند أعزِّ الناسِ لديه ، وهى واقفةٌ بالباب .

فقال ابن بكار : أَحْضِرْها .

ولما حضرت تحدثت إليه برسالتها سرًّا ، وفى أثناء حديثها كان يُقسِم أنه لم يتكلم بذلك ، ثم انصرفت .

وقد وجدَ هذا الصديقُ الفرصة سانحة للكلام فقال :

قد يكون لدار الخلافة شأنٌ عندك ؟

فقال ابن بكار : وكيف عرفت ذلك ؟

فقال : تلك التى حدثتْك سرًّا ، وانصرفتْ جاريةُ شمس النهار محظية هارون الرشيد .

فقال ابن بكار : وكيف عرفتها ؟

فقال : جاءتنى منذ مدة غير طويلة ، ومعها رسالة من شمس النهار ، تطلب منى عِقدًا من الجوهر ، فأرسلته إليها ، وفوق ذلكَ فإنى أعرفُ أنها كاتمة سِرها ، وربما كانتْ مرسَلَةً منها إليك الآن .

فأنكرَ ابن بكارٍ وقال : كيف يكون ذلك وليس بينى وبين شمس النهار أيَّةُ صِلة ؟

فقال : لعلّ أبا الحسن أطلعنى على شىء مما تنكرُهُ الآن ، وقد كرهتُ أن تكونَ وحدكَ فى غيبته ، فأحببْتُ أن أكون خلفاً له ، ولهذا جئتُك

الآن ، ولولا صدقُ نيتى فى مواساتِكَ ومعونتك ما حضرت إليك ، وسأجمعكَ بها إن شاء اللهُ قريباً فى مكان أمين ،

ففرح ابن بكار وقال :

الحمد لله الذى لا يَكلُ إلى نفسهِ عَبدًا توكّلَ عليه، ثمَّ ودَّعهُ وخرج، وكان قد ترك له صورةً فى نفس الجارية .

وعثر ذلك الصديقُ فى طريقه إلى منزله على ظرفٍ مقْفَل ، فأخذه وفتحه؛ وأخرج منه جواباً وجده من شمس النهار إلى ابن بكار تقول فيه :

لا تقلق من طول الانتظار ، فإنى لن أنساك ، ومنتظرة تَيْسيرَ الله ، ليجمعَ بيننا على سنة الله ورضا من قصر مولاى .

وفى أثناء قراءته وجد الجاريةَ تطلبُ منه هذا الجوابَ لأنه سقط منْها وهى ماشية ، فلم يلتفتْ إليها ، واستمرَّ ماشياً نحو بيته ، وهى من ورائه تلحُّ فى طلبه ، حتى دخل بيته ، فدخلتْ من خَلفِه — وكان يريد بذلك أن تتبعه ، ليَخْتلىَ بها فى منزله ، تمهيدًا لما عزم عليه من خدمة صاحبه.

وجلسَ معها فى حُجرةِ الاستقبال المنعزلة وسألها : هل تعرفينَنى ؟

فقالت : رأيْتُكَ عند ابن بكار بالأمس ؛ وعند أبى الحسن من قبله .

فقال : وأنا أعرفُ أنكِ جاريةُ شمس النهار ، وكاتمةُ سرها .

فالتفتَتْ الجارية إلى باب الحجرة وكأنّها خائفة أن يكون ببابها أحدٌ يسمعُ حديثها .

فقال :

لا تخافى ، نحن هنا فى مكانٍ منعزل ، بحيثُ لا يسمعُنا أحدٌ .

فقالت : قد يكونُ خوفى منك .

فقال لها : لا تخافى ممن يعرفُ أمرَ سيدتِك تفصيلا ، وسأبدأ بقصّه عليك حتى تطمئنّى وأسمعها القصة من أولها إلى جلوسهما هذا — ثم قال :

وأنا أريد الآن أن تساعدينى على أن نجْمعَ بينهما فى دارٍ لى مُنعزلة ، أعددْتها للقاء الإخوانِ والأصدقاء ، وهى الآن خاليةٌ وليس فيها أحَد . وغايتى من هذا الاجتماع أن نفكرَ فى أمر الزواج بطريقة لا يكونُ فيها مساسٌ بوفاء سيدتِك لقصر مولاها حسَبَ رغبتها ، ثم ناولها الجواب ، فقالت : أعددْ دارك هذه ، فربّما قدمتُ بسيدتى الليلة القادمة ، ثم ودعتْه وانصرفتْ إلى ابن بكار فناولتْه جوابَ سيدتها ثم رجعتْ إليها ، وقصّت عليها كل شىء جَديد .

وفى تلك الليلة حضرتْ شمس النهار ومعها جاريتها ووصيفتان ، إلى ذلك الصديق ، فسارَ بهنّ إلى داره المنعزلة ، ثم ذهبَ هوَ إلى على بن بكار وأخبره ، فنهض معه مَسرورًا وسارَ معهُ إلى تلك الدار ، فكان اللقاء حميدًا ، وبعد أن أطعمهمْ ما كان قد أعدَّه لهم . استأذنهم وانصرف إلى بيته مَشكورًا مِنْهُمْ ، على أن يعودَ فى الصباح إليهم .

وبينما هُو جالسٌ فى ذلك الصباح بمنزله ، يشرب قهوته ، ويفكر فى أن يذهَب إليهم ، إذ دخلَ عليه أحدُ جيرانه فى حالة حُزنٍ ورعب ، فسلَّم وقال : أحزننى ما حصلَ الليلةَ فى دارك الثانية !

فقال : وماذا حصلَ ؟ ! فقالَ :

هَجمَ اللصوصُ عليها ، فقتلوا ضيوفكَ ، وسرقوا ما فيها وهربوا ؛

فقامَ إلى داره فوجدها خاليةً ، وكان جاره هذا يصاحبه ، فما حزنَ على سرقةِ أَمتعته ، بقدر ما خافَ على أن ينكشفَ أمرُ الفتى والجارية ، والتفتَ إلى جارِه هذا سائلا : وماذا أفعل ؟

فقال : انتظر ولا تتعبْ نفسَك . فإنَّ دارَ الخلافةِ جادةٌ فى البحثِ عن هؤلاء اللصوص ، لأنهمْ فعلوا بكبارِ الأعيان ما فعلوه بكَ ، ولا تزالُ الشرطةُ مهتمةً بالبحثِ عنهمْ .

فأَسلمَ الرجُلُ للهِ أمرَه ، ورجعَ إلى بيته ، يفكرُ فى مصيرِه ، والخوفُ يملأُ صدرَه ، وقال فى نفسه :

لقدْ وقعتُ فى الورطةِ التى هربَ منها أبو الحسن إلى البصرة .

وبينما هو جالسٌ فى بيتهِ والمخاوفُ تذهبُ به كل مذهَب ، إذ استأْذَنَ عليه رجلٌ لا يعرفه ، فأجلسَه وحياه ، ثم قالَ الرجلُ له :

إنَّ المروءةَ لا تزالُ تجدُ لها مستقرًّا فى صُدورِ الرجال ، ولا تنفكُّ تدفعهُم إلى أن يخدمَ بعضُهم بَعضا ، وإن لم يكنْ بينهم تعارفٌ ولا صداقة ، وقد عرفتُ خبركَ ، وجئتكَ الآن لمعونتِكَ ، فقم معى إلى حيث أذهب ، حتى أنجيكَ من هذه الورطةِ التى لا ذنبَ لك فيها .

فاطْمأنَّ إلىَ قوله ، وذهبَ معه إلى حيثُ يريد ، ولم يزلْ سائرًا به من دربٍ إلى دربٍ حتى كان به فى دارِ اللصوص .

كان هؤلاء اللصوص قد هجموا على دار بائع الجواهر ، فهربت الجاريةُ والوصيفتان منْ سطحها إلى قصرِ الخلافةِ مُستخفيات ، وأخذَ اللصوصُ معهم ابنَ بكار وشمس النهار ، وحملوا جميعَ الأمتعةِ إلى دارٍ لهم نائيةٍ ، وهناك سألوا شمسَ النهار : من تكونينَ ؟

فقالت : مُغنية ؟

وسألوا ابن بكارٍ : ومَن أنت ؟

فقال : رجلٌ من عامة الناس .

وكان ما على شمسِ النهارِ من ثيابٍ حريرية ، وما تزينتْ به من الحُليّ والعقودِ الغالية سبباً فى عدم تصديقها أنها مغنية ، فسألوها :

ولمن هذا البيتُ الذى كنتما فيه ؟

فقالت : لفلانٍ بائع الجواهر .

فقال أحد اللصوص : أنا أعرِفه ، وأمهلونى ساعةً حتى أجِيء به إليكم ، وسنعرف منه حقيقة الأمر .

وبعد ساعة من الزمن كان الرجلُ حاضرًا ببائع الجواهر ، بدار زملائه اللصوص وكانوا عشرة ، فاستقبلوه استقبالا يبعثُ فيه اطمئنانًا وأنسًا ، ثم سألوه : هل تعرفنا ؟

فقال : لا أعرفُ أحدا ، ولكنى أعرفُ فيكم المروءة والنخوةَ ومعونةَ الضعيف .

فقالوا : وهل تطمعُ فى مروءتِنا ومعونتنا إن أنتَ كَذَبْتَ علينا ؟



شمس النهار تسقط ميتة أثناء حفلة الغناء

فقال : لا يكذبُ الغريقُ على من ينقذُه .

فقالوا : نحنُ عرفنا خَبرك ، فاقصصْه علينا ، فإن وجدناك صادقاً ساعدناك ، وإن وجدْناكَ كاذباً قتلناك .

فقال : وكيف عرفتم خبرى ؟ وهو لا يزال سِرّاً مكتوماً ؟

فقالوا : نحن اللصوصُ الذين سرقنا أمتعتَك ، وأسرنا الفتى والفتاة اللذين كانا فى دارك .

فقال : وأينَ هما الآن ؟

فقالوا :

فى حجرة من هذا البيت لم نُصبْهما بأذى حتى نعرف حقيقة أمرهما .

فلم يجدْ بائع الجواهر مخلصا من أن يقصَّ عليهم الأمرَ على حقيقته ، لعلَّه يتخذُ مِنْ ذلك شفيعاً إلى معونتهم .

فلما أطلعهم على الحقيقة ، تغلّبَ عليهم جانبُ الشفقة والمروءة ، ووعدوه أن يردُّوا إليه أمتعته ، وأطلقوا سراحَ ابن بكّارٍ وشمس النهار .

خرجَ بائعُ الجواهر وابن بكّارٍ وشمس النهار من دارِ اللصوصِ ، وبينما هم سائرون إذْ أحاط بهم رجالُ الشرطة على خيْلهم ، وأعلنُوا لَهمْ أخذَهُمْ ، لأنهمْ فى ريبة من أمرهم ، ولـكنّ شمس النهار ألقتْ فى أذنِ أحدِهم كلاماً ، فأركبها فرسَه ، وأركب بائع الجواهرِ وابنَ بكّارٍ حصانين آخرين وساروا بهم ، أما شمسُ النهارِ فإلىَ دار الخلافة ، وأما ابن بكّارٍ وبائع الجواهر فإلى منزلِ ابن بكّار .

ولبثَ بائعُ الجواهر مع ابن بكّارٍ فى منزله مدةً يبين له فضل الله عليه وعَلى شمس النهار ، إذ نجّاهما من القتل ، ويمنّيه بأن الله سيُسهلُ لهما كل سبيل ، ما داما فى حبّهما واقفين عند حدودِ الشريعةِ والمروءة ، ثم ودعه ورجعَ إلى منزله ، وما كاد يجلس ويستريح ، حتى جاءته جارية شمس النهار تبلغه شكْرها ، وتسأله عن حالهما ، وناولتهُ كيس نقودٍ أرسلتْه سيدتُها ، ليعوضَ به ما سُرِقَ من أمْتعتِه .

وبعْدَ يومين جاءت بائعَ الجواهر جاريةُ شمس النهار فقالت :

سيدتى تأمركما أن ترحلا من بغداد إلى بلدةٍ أخرى ، لايعرفكما أحد فيها ، لأنها غضبت على وصيفةٍ من الوصيفتين اللتين تعلمان أمرها ، فاغتاظت الوصيفة وحكتْ قِصّتها إلى أحد الغلمان المقربين من الخليفة ، فنقل القصة كما هى إليه ، وأمرَ الخليفة بحبسِها فى مقصورةٍ خاصة تحت حراسَة عشرين غلاماً ، وخوفاً عليكما تأمركما بالرحيل من بغداد فوراً .

أخبر بائع الجواهر ابن بكار ، فأخذا معهما بعض الغلمانِ وشيئاً من المال والبضائع وخرجا من بغداد معلنَيْن الرحلةَ للاتجار ، وسارا على غير هدى ، ولما جاء الليل حطا رحالَهما ليَبيتا فى مكانهما ، ثم يستأنِفا سيرهما عند الصَّباح ، ولكنَّ اللصوص هجموا عليهما فقتلوا غلمانهما ، وأخذوا أموالهما وبضائعهما وجمالهما ، وهُما نائمان لا يشعران ، من شدة ما نالهما من تعبِ السفر ، وكانا ينامان فى مكان يبعد قليلاً عن غلمانهما وتجارتهما .

ولما استيقظا فى الصباح لم يجدَا أموالهما ، ووجدَا غلمانهما مقتولين ،

فأصابهما من الرعبِ ما جعلهما يسْرِعان بالفرار من هذا المـكان .

سارا بن بكّار وبائع الجواهر يسوقُهما الرعبُ والأملُ فى النجاة ، حتى دخَلا مدينةً لا يعرفانها ، فلم يجدا لهما مأوى يبيتان فيه إلّا مسجدًا من مساجدها ، ناما فيه حتى الصباح .

ورآهما أحدُ المصلين الأغنياء ، وعرف من حالتهما أَنهما غريبان ، فأقبل عليهما قائلاً :

أظنكما غريبين ؟

فقالا :

نعم إنا غريبان ها هنا .

فقـال : قومَا مَعِى إلى منزلى لنؤدِّى لكما حقّ الغريب .

وجعل لهما فى منزله حجرة خاصةً بهما ، ووصَّى خدَمَه أن يطعمُوهما ويَسْقُوهما ، ويقوموا بكل ما يحتاجان إليه ؛ ولـكن ابن بكار أصابه مرضٌ فقضى عليه ثانى يوم من مقامهما فقام المضيفُ بتجهيزه ودفنِه على أحسن حال ؛ ثم استأذن بائعُ الجواهر ورجعَ إلى بغداد فأخبر أمّه وأهله ، فأصابهم لموتِه حزنٌ عظيم ، وذهب هو إلى بيته منتظرًا ما سيكون .

وبينما هو سائرٌ فى طريقه ، بعد يومين من مُقامِه ، إذْ بجارية تُمسِكُ يدَه ، فالتفتَ إليها فوجدَها جارية شمس النهار ، فأخبرها بوفاة ابن بكّار ، وسألها عن سيدّتِها فقالت :

إنّ أَميرَ المؤمنين لم يسمعْ فى أَحد وشايةً لا دليلَ عليْها ، فلم

يؤاخذها بما بلغه عنها لعدم الحجة والدليل . ولـكنها فى حفلة الغناء أمس الأول شكت ألماً فى صدرِها فجأة ، وجعل هذا الألم يزيدُ قليلا قليلا حتى فارقت الحياةَ لساعتها .

فقال بائعُ الجواهر : أرادَ المحبان أنْ يجتمعا على سنة الله فى الدنيا فلم يستطيعا ، فعجَّلَ اللهُ بوفاتهما ليلتَقِيَا فى الآخرة مسرورين فى جنات النَّعِيم .

رقم الإيداع	١٩٩١ / ٣٤٩١
الترقيم الدولى	ISBN 977 - 02 - 3244 - 0

١ / ٩٠ / ١٨٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

ألف ليلة وليلة

هذه طبعة جديدة من هذه المجموعة التى تنتمى إلى التراث الشعبى.. والتى نالت إهتمامًا عالميًا فى الشرق والغرب.. وترجمت إلى كل لغات العالم..

وتمتاز هذه الطبعة بحسن الصياغة التى تناسب عقول الشباب والناشئة.. وتخلو من الشوائب التى توجد فى طبعات كثيرة..

إنها واحدة من عيون التراث الذى تحرص دار المعارف على تقديمه إلى القارئ العزيز..

صدر منها:

١ - شهر زاد ودنيا زاد
٢ - السندباد البحرى
٣ - قمر الزمان
٤ - الصياد والعفريت
٥ - معروف الإسكافى
٦ - الأحدب والخياط
٧ - عبدالله البرى وعبدالله البحرى
٨ - أبوالحسن وجاريته تودد
٩ - الحصان المسحور
١٠ - على بن بكار وشمس النهار
١١ - على الزئبق ودليلة المحتالة
١٢ - علاء الدين والمصباح العجيب
١٣ - على بابا



دار المعارف

قرش جنيه
٣,٥٠